

# البؤساء

سلسلة قصص من الواقع والخيال

المستشار وائل القاضي



دار بيوند للنشر والتوزيع  
4 ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم  
01096900007  
Beyond.dbh@gmail.com

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص  
أو مؤسسه أو جهة إعادته إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه .  
أو نقله بأي شكل من الأشكال أو تدواله الكترونيا نسخا  
أو تخزينا دون إذن خطي من الدار

الكتاب: البؤساء

المؤلف: وائل القاضي

الطبعة: الأولى

تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية

تصميم الغلاف: محمد علي

التدقيق اللغوي: سوزان خليفة

الإخراج الداخلي: صبرينة غلمي

رقم الإيداع: 2018/ 10724

الترقيم الدولي: 978-977-6645-17-2

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها. ولا تعبر بالضرورة عن  
رأي دار النشر

# إهداء

إلى الكاتب الكبير ( فيكتور هوجو ) المؤلف الكبير ومؤلف النسخة العالمية الأولى  
من قصة البؤساء.

إلى جميع الممثلين الذين قاموا بتمثيل أدوارهم في هذه الملحمة الجميلة  
بصفة عامة.. وإلى الممثلين العالميين ( ليام نيسون) الأمريكي... و(فريد شوقي)  
المصري - رحمه الله تعالى بصفة خاصة.

إلى جميع الأدباء والكُتَّاب بصفة عامة.

إلى ربي سبحانه الذي سألته فأهداني هذه القصة.

إلى نور العالمين ( صلى الله عليه وسلم ).

إلى جميع الناس بصفة عامة - وإلهم بصفة خاصة..

البؤساء...

## مقدمه

إنها أمواج الحياة..

التي نبحت بين أمواجها عن كنوزها..

ونجري ونلهث ورائها..

فنجد أناس يتنعمون..

وأناس يحترقون..

وبين أولئك وأولئك.. آخرون..

يطلق عليهم البسطاء..

والثلاثة لهم مشاكلهم ومأسهم..

التي سنستعرضها..

والتي ربما نتأثر بها..

حيث سننألم لألمهم..

ونبكي لدموعهم..

فقد نحزن تارة..

وقد نضحك تارة أخرى..

ولكن في كل مرة سنجد قصة..

أبطالها من الحياة..

دموعهم من الواقع..

أحداثها من الخيال..

وعندما يمتزج كل هذا مع ذلك..

سيخرج لنا الاسم جلياً.. وهو..

قصص من الواقع والخيال..

## مقدمة

هذه القصة تدور أحداثها في القرن الثالث عشر الميلادي في الاتحاد السوفيتي، والتي تفتت إلى دول ودويلات صغيرة، أبرزها الآن دولة (روسيا)، وقد تكون أحداث هذه القصة قد حدثت أو لم تحدث، ولكن هذه القصة من وحي خيال المؤلف، فإن كانت أحداثها كلها أو بعضها قد حدثت فهذه ليست مسؤولية المؤلف.

المؤلف/المستشار

وائل القاضي

## الفصل الأول

وقف (ألبرت) ذلك المواطن الروسي البائس الفقير، ينتفض ويرتعد ويرتعش، أمام سطوة المرابي اليهودي البدين (موشى)، ذلك الشخص اللعين الذي هبط على تلك البلدة الفقيرة، وشرع يعطي ويدين الفقراء، مقابل صكوك دين وفائدة عالية، وكلما تعثر ثمة أحد في السداد، كان يقول له ذلك اللعين، في ابتسامة صفراء مقيتة:

لا عليك... سنؤجل السداد، ولكن... سنزيد الفائدة، وعندما تصل الفائدة إلى خمس أو ستة، أضعاف المبلغ.. من أصل رأس المال، يقول له ذلك اللعين في شماتة:

معذرة.. لن أقدر على الصبر مرة أخرى، يجب أن استرد أموالى الآن، فيحصل على بيته، فإن لم يكن له بيت، يحصل على زوجته أو أولاده، فإن لم تكن له زوجه أو أولاد يحصل عليه هو شخصياً، وبالطبع فمصير هذه الأشياء معروف، فاليبيت يقوم ببيعه، والزوجة تصبح عبدة له، فيستمتع بها وقتما وكيفما شاء، وعندما يمل منها يقوم ببيعها في سوق النخاسة، أو بمعنى أدق.. في سوق العبيد، فإن حصل على أولاده أو عليه هو شخصياً، فيصبروا جميعاً عبيداً له، يستعملهم كيفما شاء، ويبيعهم في سوق العبيد وقتما شاء، هذا هو المرابي اللعين (موشى)، أما (ألبرت) فقد كان أحد فقراء هذه البلدة، المنكوبة بهذا المرابي، وكالعادة.. فقد استدان منه

بعض النقود، للمساعدة على المعيشة الصعبة، وأسرته تتكون منه هو وزوجته وأولاده الثلاث، وظل الدين يكبر ويكبر ويكبر، حتى أخذ منه زوجته وأولاده الثلاث، واليوم حان الدور عليه، ولأن (ألبرت) كان أكثر الفقراء البؤساء تلفظاً عليه، حينما أخذ منه زوجته وأولاده الثلاث، فقد كان (موشى) في هذا اليوم، يرغب ويتمعن في إذلاله أكثر وأكثر، فلم يرض هذا المرابي بـ

(ألبرت) عبداً، أو بديلاً عن النقود، لقد طلب منه طلباً أكثر إذلالاً، وأكثر إيلاًماً من ذلك بكثير، لقد أعطاه مهلة لمدة ستة أشهر، في مقابل عقد جديد، لا ينتج إلا عن عقلية شيطانية، لقد كتب معه عقداً، بأنه سيأخذ من لحم فخذه كيلو من اللحم كاملاً، ومضى هذا البائس المسكين، على هذا العقد اللعين، وهو لا يملك من الأمر شيئاً، واشتغل وعمل (ألبرت) بأقصى طاقته وجهده، اشتغل بجسده النحيل، وهو يواصل الليل بالنهار، حتى مضت الأشهر الست، وذهب (ألبرت) إليه مرة أخرى، ولكن بنصف النقود فقط، وجلس (موشى) على عرشه، الكبير الضخم والذي لا يملكه سوى، النبلاء في هذه البلدة، في عظمة وكبرياء وغطرسة واضحين، وهنا قال (موشى) بذات لهجته:

ولكنك لم تحضر المال كله، يا عزيزي (ألبرت)...

ثم قال له في شماته واضحة:

أعتقد أنه الآن من حقي ، تنفيذ عقدي بدون قيد أو شرط..

وهنا تفرق الدمع في عيني (ألبرت)، وهو يقول متوسلاً راجياً:

أرجوك أيها الرفيق (موشى)، اجعلني خادمك.. اجعلني عبدك واستدرك قائلاً:

ولكن لا تنفذ هذا العقد معي أرجوك، وشرع (ألبرت) يبكي ويبكي، ولكن هذه الدموع لم تؤثر أو تنفذ، في ذلك القلب الفولاذي، وهنا قال (موشى) أما هذا الجمع الغفير من الناس، إذ كان هذا الأمر، يحدث في بداية سوق البلدة:

إذا كنت تريد ذلك، فعليك بتقبيل حذائي حتى أبدأ في التفكير في الأمر، وعلى الفور احضر عبيده، قطعة كبيرة من الخشب، ليضع (موشى) عليها كلتا قدميه، وهي قطعة مغطاة بالقماش الحريري المرزكش، ووضع (موشى) كلتا قدميه عليها، ونظر (ألبرت) إلى جموع الناس، المحيطة بالمكان في خجل ممزوج بالذل و المهانة، فقهقه (موشى) ضاحكاً قائلاً:

لا تستحي.. ولا تخجل يا عزيزي (ألبرت)...

ثم استطرد في كبرياء:

فأنت لست أول واحد... ولن تكون الأخير... ثم إنك قد بعت وتركت زوجتك وأولادك، وهذا الأمر ليس أصعب الأشياء، الآن بالنسبة لك، ثم قال (موشى) غاضباً أمراً:

هيا.. إنني لن انتظرك اليوم كله...

وبدموعه.. قبل قدميه، شرع (ألبرت) يجر قدميه، بعد أن أصابهما الذل والخزي بالشلل التام، ووصل (ألبرت) إلى حيث قدمي (موشى)، وبمنتهى الذل مال (ألبرت) على قدمه اليسرى ليقبلها، تسبقه دموعه بالطبع، وعندما مال هذا الأخير بوجهه، ليقبل قدمه اليمنى، ضربه (موشى) بحدائه في وجهه ضربة خفيفة، إمعانا في إذلاله، ارتج لها كيان (ألبرت) كله، وارتد معها في عنف شديد، و(موشى) يقول:

معذرة.. يا عزيزي (ألبرت) لقد فكرت في الأمر...

ثم استدرك قائلاً:

ولكنني أريد تنفيذ عقدي، ثم شرع يقهقه ويضحك في قوة، بينما

(ألبرت) جائئاً على ركبتيه يبكي ويبكي، وهنا برقت في عقل (ألبرت)، فكرة جنونية.. فشرع في تنفيذها على الفور، وهنا وقف

(ألبرت) صارخاً في (جنون):

لن تحصل عليّ.. أبداً.. أبداً أبداً أيتها اللعين...

ثم أخرج سكيناً كبيراً... ورفعته بمنتهى القوة والسرعة، واتجه بسكينه بمنتهى السرعة نحو قلبه، ولكن أحد عبيده اتجه إليه بسرعة البرق، وأمسك ذراعه بمنتهى القوة والعنف، ومنعه من إنهاء حياته بيده، ثم قام بلوي ذراعه، بمنتهى القوة.. حتى تأوه (ألبرت) من جراء ذلك، واختطف عبده هذا السكين من يده، بينما

شرع (موشى) يقهقه ويضحك، بمنتهى القوة واللذة والمتعة، وكأنما قد شاهد للتو،  
أطرف شيء في الوجود كله، ثم قال في شماتة ممزوجة بالازدراء:

حتى حياتك ليست ملكاً لك.. إنها ملكي أنا..

ثم شرع يكرر عبارته بذات لهجته:

ملكي أنا... ملكي أنا...

ثم استطرد قائلاً:

والآن يا عزيزي (ألبرت) دعنا نقوم بتنفيذ عقدنا،

ثم قال أمراً:

احضروا السكين.. فاندفع أحد عبيده، بأقصى سرعة.. واخرج سكيناً كبيراً من  
جرابه، ثم اعطاه لسيده بمنتهى الخضوع والخنوع، وهو ينحني في وضع أشبه  
بالركوع، وهنا قال ذلك اليهودي المرابي اللعين:

هيا يا عزيزي (ألبرت)، تعال بنفسك لتنفيذ عقدك، واستسلم لأمرك، فلا مناص  
من تنفيذ عقدنا،

وهنا برقت في عقل (ألبرت) فكرة أكثر جنوناً من ذي قبل، فقال في منتهى القوة  
والجرأة، بلهجة رجل تم الحكم عليه بالإعدام، وفقد الأمل في كل شيء:

لن تنال مني أي شيء أيها اللعين، ثم استطرد بذات لهجته الجنونية:

هل سمعت؟

لن تنال مني أي شيء أيها اللعين..

وشرع يردد ويكرر في جنون:

لن تنال مني أي شيء أيها اللعين..

وبيني وبينك القضاء...!

هل سمعت؟

بيني وبينك القضاء...!

ولن تنال مني شيئاً أيها اللعين... أبداً..

وحاول خدمه وعبيده منعه من الإنصراف...

ولكن ثقة (موشى) الشديدة في نفسه، جعله يشير لرجاله بيده في صرامة، إشارة

ذات مغزى واضح، بمنعهم من اعتراضه، وتركهم له لينصرف في هدوء، وهو ما زال

يكرر ويصرخ في جنون:

لن تنال مني أي شيء أيها اللعين.

لن تنال مني أي شيء أمها اللعين.

وسترى ما سيفعله بك القضاء..

وشرع صوته يبتعد.. وابتعد.. وابتعد..

ولكن ثقته في نفسه وفي القضاء الروسي، كانت مهتزة.. تماماً، وإلى أقصى حد ممكن.

## فصل الثاني

جلس (ألبرت) حزيناً وحيداً يبكي في انهيار، على أحد جانبي قارعة الطريق، في تلك اللحظات شعر هذا الأخير، بيد حانية تربت على كتفه، وصوت حنون يقول في عطف ممزوج بالإشفاق:

كيف حالك يا عزيزي (ألبرت)؟

وفي بطءٍ شديد رفع هذا الأخير رأسه، إلا أن غشاوة عينيه، والتي غطتها سحابة كثيفة من الدموع، لم تجعله يتبين وجه الجالس بجواره، إلا أنه قد عرف تقريباً صوت من هذا، فقد كان صوت أحد معارفه، بطل قصتنا (فلاديمير مالمينوف)، فأجابه الأول:

بخير حال يا عزيزي (فلاديمير)، خسرت زوجتي وجميع أولادي، والدور عليّ الآن، فقال له (فلاديمير):

لقد عرفت بأمر ذلك العقد الملعون، مع ذلك اللعين المرابي (موشى). كيف قمت بالتوقيع على أمر كهذا، فلم يجد (ألبرت) جواباً شافياً، وكم كان هذا الأخير يتمنى أن يخبره، بكل أموره وكل ظروفه، وكل المصاعب الشديدة التي مرت به، ولكن غصة شديدة، احتلت حلقة وقلبه، وسيطرت على كل مشاعره ومنعته من الكلام

نهائياً، وسرعان ما أدرك، أن ذلك الرجل الذي يجلس بجواره، بالتأكيد ما دام قد علم بأمر ذلك العقد اللعين، فهو بالتأكيد يعرف، كل ما أحاط به من مصاعب ومشكلات، فاكتفى بالصمت الحزين،

فقال (فلاديمير) في صدق:

سأنصحك نصيحة.. ليس أمامك سوى رجل واحد في العالم، هو الوحيد الذي سوف ينقذك من مصيبتك هذه،

ثم استطرد في هدوء:

اعتقد أنك تعرف بالطبع عنم أتحدث،

إنه... (سيرجي شيروبوف)..

(سيرجي شيروبوف).. هو أكبر محامي في هذه البلدة، كان في البداية محامياً للجميع، للأثرياء والفقراء سواء بسواء، ولكن بعد وفاة زوجته الحبيبة (ناتالي)، والتي لم ينجب منها ثمة أطفال قط، على الرغم من أنه قد عاش معها لأكثر من عشرين عاماً، ثم أصابها المرض، ولم يطل مرضها، ولم تعذب من حولها كثيراً، فقد رحلت في هدوء، ومنذ وفاتها منذ حوالي ثلاث سنوات كاملة، فهو مخلص لها تماماً، ويعيش على جمال ذكراها وذكرياتها، فضلاً عن أنه قد وهب نفسه للفقراء تماماً، للفقراء فقط لا غير، وامتنع عن جميع قضايا الأثرياء والأغنياء، وكأنه كان يفعل ذلك من أجلها، فقد كانت زوجته الحبيبة، تطالبه دائماً بأن يهب نفسه للفقراء.. للفقراء

فقط، ولذلك وبعد أن رحلت، زوجته ومعشوقته في هذا الوجود، قرر تنفيذ أمنيتهما الوحيدة، التي كانت تتمناها في حياتها، بأن يهب نفسه للفقراء فقط، ولكنه للأسف لم يفعل ذلك، سوى بعد وفاتها، ورحيلها عن هذا العالم.

سمع (سيرجي) طرقات خفيفة، على باب منزله، فسأل في هدوء:

من الطارق؟

فأجابه الطارق:

(ألبرت دنيوف) أيها الرفيق (سيرجي)..

فقام هذا الأخير لفتح الباب، ثم استقبل ضيفه في هدوء، فقال هذا الأخير بعد أن أجلس ضيفه في ردهة منزله:

لقد وصلتني أخبارك، يا عزيزي (ألبرت)..

واستدرك قائلاً:

ولكني أحب سماع كل القصة منك ومنذ البداية،

وشرع (ألبرت) بدموعه.. يحكي قصته منذ البداية،

وشرع يروي ويروي ويروي..

\* \* \* \* \*

وقف الجميع سواسية.. متساوون، في ساحة القضاء، أمام قاضي هذه البلدة والشهير بالعدالة الشديدة، وطرق القاضي بمطرقته الشهيرة. على منصبه.. لمنع الصوت تماماً في قاعة المحاكمة، وهنا قال القاضي بصوته الجهوري:

محامي المدعي يتحدث..

وفي اطمئنان وقف محامي المدعي (موشى)، وتظاهر بأنه يرتب أوراقه، واتكئ القاضي.. ليستمع في إنصات إلى الجميع، وابتسم (موشى) ذلك البدين اللعين، ابتسامة صفراء مقبلة، مليئة بالثقة والغرور، ونظر نظرة إلى (ألبرت)، انتفض وتفتت معه قلب هذا الأخير، خشية من أن يصدر حكم القاضي، لصالح ألد أعدائه في هذا العالم (موشى)، وبدأ محامي المدعي في الحديث قائلاً:

القصة منذ البداية يا سيادة القاضي، وشرع المحامي يروي ويروي، ويقدم العقود والمستندات والأدلة، والبراهين على صحة أقواله، حتى انتهى إلى هذا العقد الأخير، فقال المحامي في ثقة:

ومن المعروف يا سيادة القاضي، أن المدعي عليه قد قام بالتوقيع على العقد، بملئ إرادته.. وبدون أي تأثير من أي أحد، مع توافر ركن العلم، فقد كان المدعي عليه، يعلم تمام العلم، ما هو يقوم بالتوقيع عليه، فلا يدعي الجهل به، ولدينا هنا من الشهود ما يؤازر ويؤيد أقوالنا، فضلاً عن توافر ركن الرضا، فلم يقم ثمة أحد، بإجباره على التوقيع، على هذا العقد، بل قام بالتوقيع راضياً، وفي اطمئنان تام، ولدينا أيضاً من الشهود ما يؤيد أقوالنا، كان (موشى) يبتسم في ثقة؛ لأنه لم يخسر

قضية واحدة أمام هذا القاضي، ليس لأن هذا القاضي مرتشي، لا قدر الله (سبحانه)، ولكن لأن كل أوراقه سليمة تماماً في كل مرة، وانتهى محامي المدعي من حديثه قائلاً:

لهذا و لكل ما سبق، فإننا نطالب بتطبيق عقودنا، و نصر عليه، ثم انحنى في احترام و تجيل قائلاً:

شكراً يا سيادة القاضي....

وقف (سيرجي).. محامي المدعي عليه (ألبرت)، وأخذ نفساً عميقاً ملئاً به صدره، ليشعر نفسه بالثقة،

ثم سرعان ما قال:

في البداية.. التحية والسلام، على القضاء الروسي العادل، بصفة عامة.. وعلى قاضينا المبجل بصفة خاصة، فقضيتنا اليوم لا تحتاج إلى الكثير من الحديث، فنحن نعتزف أمامكم، يا سيادة القاضي ونعتزف للمدعي، بأن المدعي عليه قد قام بالتوقيع، على هذا العقد بملئ إرادته، وبرضى تام، وهو يعلم تمام العلم، بما يقوم بالتوقيع عليه، وفي تلك الأثناء انشطر قلب (ألبرت)، وللحظات شعر بالندم لاختياره له، واستطرد محاميه قائلاً:

ولسنا اليوم ههنا بصدد التحدث، عن الإكراه المعنوي الذي وقع على موكلي، ولكننا هنا اليوم لننفذ العقد المستحيل لصالح المدعي، ثم أخرج المحامي

من حقيبتيه سكيناً كبيراً، أثارت همهمة وضجة كبيرة بين الحاضرين، مما دعا القاضي إلى أن يطرق بمطرقته، ثلاث مرات متتاليات، ليجبر الحاضرين على الصمت،

وهنا قال القاضي في صرامة:

ماذا تفعل.. أيها الرفيق (سيرجي)، ثم اردف بذات لهجته:

إنني أملك أن أصدر حكمي بالقائك خلف القضبان، لإدخال أسلحة ممنوعة، داخل ساحة المحاكمة، وابتسم (سيرجي) وهو يقول:

لقد احضرت السكين لتنفيذ العقد ههنا، يا سيادة القاضي، ونظر (موشى) إلى خصمه (ألبرت) في شماته، وانطلق قلب هذا الأخير بعيداً عن جسده، وانهار هذا الأخير تماماً.

هبط الصمت ثقيلاً على قاعة المحاكمة، بعد عبارة وتصرف المحامي (سيرجي)، الغير مفهوم.. والغير مبرر نهائياً، إلا أن هذا الأخير سرعان ما قال، مبرراً موقفه قائلاً في حماس:

## الفصل الثالث

اأذن لي سيادة القاضي، إن نص العقد الذي بحوزة موكلي، والذي تم تحريره من نسختين إحداهما مع المدعي، والثانية مع موكلي، والتي هي بحوزتي الآن، تقول بالحرف الواحد، إذا عجز موكلي عن السداد للمرة السابعة، فإن المدعي يتنازل عن أصل الدين وفوائده، في مقابل كيلو من اللحم الطازج لآخذ موكلي، ثم رفع (سيرجي) الورقة عالياً، ثم قال بصوت أعلى، أليس كذلك يا سيد (موشي)..!

فقال القاضي في صرامة:

لا تخاطب المدعي.. وإنما خاطب رئيس هذه المحكمة..!

فقال (المحامي) معترفاً:

أنا آسف يا سيدي..

فقال محامي المدعي.. مخاطباً هيئة المحكمة، والتي لا تتكون إلا من قاض واحد:

نعم يا سيادة الرئيس.. إن ما قاله السيد الزميل صحيح تماماً، وهنا قال محامي المدعي عليه:

معدرة يا سيادة الرئيس، ولكن العقد لم يتضمن الدماء، ومن ثم فإنه يجب على المدعي، قطع كيلو من لحم موكلي بدون دماء.

فقال القاضي بعد أن ضرب بمطرقته منصبه، وكأنما قد اعتاد على ذلك:

حجة باطلة.. وشيء طبيعي، عند قطع اللحم.. ستنزل الدماء..

ثم اردف في صرامة موجهاً حديثه لمحامي المدعي عليه:

ابحث عن حجة أخرى.. أو دليل آخر..

في تلك اللحظات العسيرة، يجب علينا أن نصف هذا المشهد الطبيعي، فقد كان (موشى) يشعر بمنتهى السعادة والنشوة والنصر، بينما هبطت معنويات خصمه (ألبرت)، إلى أقصى أقصى أعماق الأرض، أو بمعنى أدق.. أعمق أعماق الجحيم، فقد صار الحكم لصالح (موشى) قاب قوسين أو أدنى، إلا أن (سيرجي) قد فاجأ الجميع عندما قال:

إذن يا سيادة القاضي، فيجب على المدعي، أن يقطع كيلو من لحم المدعي عليه الطازج، كيلو واحد فقط بالتمام والكمال، فإن قطع المدعي قطعة من اللحم، تزيد أو تنقص عن مقدار الكيلو الواحد، فهذا لا يعتبر سوى بمثابة أذى لموكلي، وهذا أمر.... وهنا وقف محامي المدعي (موشى) مقاطعاً:

احتج على هذا الأمر يا سيادة..

فقاطعه القاضي بضربة قوية من مطرقة قائلاً في صرامة:

احتجاجك مرفوض، وغير مسموح لك بالكلام، حتى ينتهي محامي المدعي عليه من دفاعه، فقال محامي المدعي صاغراً:

أمرك يا سيادة القاضي..

فأكمل (سيرجي) وقد بدأ يشعر باقتراب النصر:

وهذا أمر غير مقبول على الإطلاق، ثم استطرد كلامه قائلاً:

بل وأطالب.. إن قام المدعي (موشى)، بقطع كيلو من لحم فخذ موكلي، فإن زادت هذه القطعة عن مقدار الكيلو، أو نقصت.. فيجب عقاب المدعي بذات العقاب، واكتست لهجته بصرامة وشراسة مبالغتها وهو يقول:

وهي قطع قطعة من لحم فخذه، مساوية لقطعة اللحم التي قطعها من فخذ موكلي، ودون أن يشعر فقد شهق (موشى)، شهقة رعب ممزوجة بالذعر، سمعتها القاعة كلها أو كادت، وشرع القاضي في التفكير، وضجت القاعة بهمهمات الحاضرين، ما بين مؤيدين أو معارضين، وأخيراً وليس آخراً، ضرب القاضي بمطرقة على قطعة الحديد، الموجودة على منصته، ثم قال هذا الأخير في صرامة:

يا سيد (موشى)..

فتقدم هذا الأخير، وقد شعر لأول مرة في حياته بالشلل التام.. وهنا حاول محاميه التدخل قائلاً:

اعترض على..

فقاطع القاضي بضربة أشد قوة من مطرقته قائلاً في حدة:

ليس من حقك التدخل في إجراءات المحاكمة...

فابتلع محاميه لسانه، وتمنى من الله سبحانه، بالأ ينتهي الأمر بحبس أحدهما، فسأل القاضي المدعي (موشى) في صرامة:

هل أنت على استعداد يا سيد (موشى)؟

بأن تقطع قطعة من لحم فخذ المدعي عليه (ألبرت)، واستدرك قائلاً:

ولكن على أن تكون هذه القطعة بمقدار كيلو بالتمام.. والكمال؟

فاجابه (موشى) بصوت مختنق، وقد وصل الرعب والانهيار منه مبلغه، وهو يتخيل بأن عدوه اللدود، يقوم بقطع لحمه، كما كان يبتغي هو ويشتهي، فصرخ في انهيار ممزوج بالدموع:

كلا.. كلا يا سيادة القاضي.. لا استطيع..!

فضرب القاضي قطعة الحديد، المتواجدة على منصته بمنتهى القوة

قائلاً:

انتهت القضية.. الحكم لصالح المدعي عليه، ببطلان العقد.. وانتهاء الدين، وسقط (موشى) مغشياً عليه من شدة الرعب، وسقط (ألبرت) مغشياً عليه من شدة الفرحة وعدم التصديق، ونظر (سيرجي) محامي المدعي عليه، إلى محامي الخصم المدعي في شماته، وضجت والنهبت القاعة بالتصفيق الحار، والعبارات التي تعبر عن استمرار وحب العدالة، وخرج حزب (موشى)، يلاحقه آثار الهزيمة والخزي، وخرج حزب (ألبرت)، فرحاً منتشياً بنشوة النصر والفرحة والسعادة، وكان بطل قصتنا (فلاديمير) متواجداً في القاعة آنذاك، واقسم على الجميع، ليدعوتهم إلى طعام الإفطار، وعاد الجميع إلى حيث بيت (فلاديمير)، وسرعان ما اعدت زوجته الجميلة (ميرا) طعام الإفطار، وجلس الجميع على الأرض، بلا استثناء.. لتناول طعام الإفطار، وكان (ألبرت) أول من انتهى من طعامه، وشكر مستر (سيرجي) كثيراً، لأنه انقذه من هذه الحفرة العميقة، ثم قبل رأسه.. ويده، وشرع في الانصراف، إلا أن (فلاديمير) استوقفه، وانتحى به جانباً، بعيداً عن أعين جميع الناس، ثم سرعان ما أعطاه كيساً من النقود، ثم قال له هذا الأخير:

أريدك أن تبدأ حياتك من جديد، ولا تستدين من أي أحد، مهما ضاقت بك الظروف، وإن ضاقت بك الظروف، تعالي إلي.. واقسم لك، بأنني سأفعل كل ما بوسعي لكي.. فقاطعه (ألبرت) وهو يقبل كلتا يديه، ثم يحاول النزول على ركبتيه، ليقبل قدمي (فلاديمير)، إلا أن هذا الأخير منعه من ذلك، وعندها.. وعندها فقط،

لم يتحمل (ألبرت) كل ذلك فاحتضن (فلاديمير) بكل قوة، ثم شرع يبكي... ويبكي... ويبكي.

## الفصل الرابع

عاد (فلاديمير) إلى حيث تجلس زوجته وأولاده الثمانية، وضيغه العزيز مستر (سيرجي شيروبووف)، وقبل أن نستطرد في إكمال قصتنا، يجب أن نعلم كل شيء تقريباً، عن بطل قصتنا (فلاديمير مالينوف) فهو الابن الوحيد لأسرة متوسطة الحال، لا هي بالثرية ولا هي بالفقيرة، لم تنجب سواه، وكان الوالد يعمل حداداً، يستطيع بالطبع صنع كل شيء من الحديد، كل شيء... وأي شيء في هذا الزمان، مثل السيوف والدروع وحدوة الحصان، وبعض الأواني المنزلية التي تستخدم للطهي، وأكواب الماء... وبعض الأواني، التي تستخدم للشرب بصفة عامة، سواء لشرب الماء... أو لشرب الخمر، وغيرها... وغيرها من الأدوات الخاصة بهذا الزمان، واستطاع هذا الأب الحداد الماهر، أن ينقل صنعته وكل مهارته إلى نجله الوحيد، (فلاديمير) التي كان يعشقها إلى حد الجنون، بل واتقنها ربما أكثر وأمهر من والده بحق، إلى جانب حصوله على قسط بسيط من التعليم في هذا الوقت، وكما علمه والداه، وأحباؤه.. وأولياؤه كل رعايته، فعل هو بالضبط مع أولاده الثمانية، ورحلت أمه الجميلة في البداية في هدوء، ثم تزوج هو حبيبته ومعشوقته (ميرا)، حيث كان يعيش في البداية مع والديه، قبل رحيل ووفاة أمه الحبيبة، حيث أقام والده بيتاً بسيطاً، من الحجارة والطين، من طابقين وبالطبع فقد كان حانوت الحدادة، يقع بالطابق الأول، ولأن (فلاديمير) نشأ وترعرع وحيداً بدون أشقاء، فقد أقسم.. بأن

تكون له ذرية كبيرة كثيرة، وأن يكون له عدداً كبيراً من الأولاد، وبعد نجليه التوأم الذكور، بشهور قليلة أصاب المرض الأب الحنون، ورحل في هدوء مثل زوجته، وذلك من شدة حزنه عليها، وأما عن زواجه بعد رحيل والدته بثلاثة أشهر فقط، فلأن هذه كانت وصية أمه، إذ قالت له مرة ذات يوم بعد أن شعرت بدنو أجلها:

يا ولدي.. أرجوك يا ولدي.. أريدك أن تعدني بشيء..!

فقال لها الابن في طاعة:

ماذا تريد يا أمي؟

فأجابته في هدوء:

أريدك أن تعدني، إن حدث لي أي شيء، أو رحلت عن هذا العالم، فلا تؤخر زواجك من أجلي، أو لهذا السبب مهما حدث،

فصمت الابن طويلاً.. وطال صمته، فقالت الأم تستحته:

هيا... أرحني بها يا ولدي، عدني.. أرجوك، فأجابها في حزن مطأطأ الرأس:

أعدك يا أمي، ورجلت الأم في هدوء، وتزوج هو بعدها تنفيذاً لوصية امه الحبيبة، وبعد ميلاد توأمه الذكور، رحل والده المريض، حزناً وكمداً على زوجته الحبيبة، ومضت السنون وتوالت الأطفال، وانجبت الزوجة الجميلة (ميرا)، أربع مرات.. في كل مرة كانت تلد توأمًا، في أول مرتين ذكور، ثم في المرتين المتتاليتين توأمًا ذكر وأنثى،

وما بين ميلاد كل توأم وآخر عامين بالتمام والكمال، ما عدا التوأم الثالث و الرابع، فالتوأم الثالث جاء بعد ست سنوات كاملة، من ميلاد التوأم الثاني، ثم جاء التوأم الرابع والأخير بعد ثلاث سنوات كاملة من ميلاد التوأم الثالث، وهكذا بدون وسائل لذلك في ذلك الزمان، وإنما كان هذا ضبط إلهي، بمشيئته هو (سبحانه)، ومضت الأيام.. وتعاقت السنون، وكبر أولاده.. وكبر معهم بالطبع الأبوين، وكان الأب يحب أولاده جميعاً حباً جماً، ولم يهتم الأب كثيراً بحب وجمع المال يوماً، بقدر ومقدار حبه لزوجته وأولاده وأسرته، ولأنه تزوج وهو صغير السن، حيث كان عمره هو آنذاك عشرون عاماً، وكان يكبر زوجته الحبيبة بعامين فقط، فقد أصبح اليوم في عمر السادسة والثلاثون، وعمر ابنه التوأم الأول حوالي خمس عشر عاماً تقريباً، وعمر الولدين التوأم اللذان يلونهم، ثلاثة عشر عاماً تقريباً، وكان عمر التوأم الثالث حوالي ستة أعوام، وكان عمر التوأم الرابع والأخير حوالي ثلاثة سنوات، وهكذا أصبح أولاده التوأمين، الأول والثاني الذكور، رجالاً في ظهره، يعشقهم ويعشقونه، بل كان يحب أسرته جميعاً بلا استثناء، واستطاع نقل حبه لعمله، فن الحدادة ومهارته إلى أولاده، وعلى الرغم من أنه كان حداداً، وهؤلاء من يمتنون أو يعملون هذا العمل، المضني.. الملتهب، في كثير من الأحيان، تكون قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، إلا هو.. فقد كان (فلاديمير) هذا، هو الاستثناء الوحيد في هذا العالم القاسي، الصارم.. الذي لا يرحم، لقد كان قلبه ناصع البياض، مثل الحليب الأبيض، نقي طاهر... مثل ماء البحور، لا يحمل أو يكن حقدًا، أو ضغينة أو كرهاً لأحد، ولا يتمنى سوى الخير لكل الناس، وكانت زوجته وأولاده مثله تماماً، كانوا

يحبون الخير، ويسعون ويهرولوا إليه بأي طريق كان، وقد كان (فلاديمير) يمتلك حظيرة بجوار منزله، تقوم زوجته بمساعدة أولاده، بتربية بعض الطيور من الدواجن بأنواعها، وبعض رؤوس الماشية، والكثير من البط والأوز، وعن طريق هذه الحيوانات، كانت زوجته تحصل على البيض والحليب، وبالطبع.. بعض اللحم الشهي.

ولنعد الآن إلى الإفطار الذي قام (فلاديمير)، إلى دعوة بعض الأصدقاء عليه، ومنهم بالطبع... كلاً من (سيرجي) و(ألبرت)، والذي كانت زوجته الحبيبة، تقوم بإعداده وتجهيزه، بمساعدة جميع أولادها بالطبع، وكان إفطاراً جماعياً شهياً، تشارك فيه الجميع، وأكلوا حتى شبعوا، وامتألت بطونهم وارتوت، ورويداً رويداً.. بدأ وشرع الضيوف في الانصراف، حتى (ألبرت) انصرف، وهو يمشي على استحياء، وتعانق هو و(فلاديمير) في حرارة ممزوجة بالحب، ثم انصرف في هدوء، وهذا الأخير يؤكد عليه في صدق:

بأنه إذا احتاج إلى أي شيء، فيجب أن يأتي إليه بدون حياء أو خجل، ويطلب منه ما يريد.. وكأنه شقيقه.

وهنا قال له (ألبرت) في صدق:

أعدك أن معروفك هذا لن أنساه، ثم أردف في صدق:

وأعدك أيضاً.. بأني سأحاول رد هذا، المعروف لك في يوم ما من الأيام، وانصرف  
هذا الأخير، والدموع تملأ عينيه.. وتعلق هذا الوعد في السماء..

ليتحقق في يوم ما.. من الأيام..

بصدق.

\* \* \* \* \*

انصرف جميع الضيوف من الساحة الخارجية، لمنزل (فلاديمير) ووقف  
هذا الأخير في تواضع جميل، ليودعهم في حرارة، ليشكرهم على قبول دعوته، بينما  
كانوا هم يشكرونه على حسن ضيافته، حتى انصرف الجميع إلا المحامي الشهير،  
محامي الفقراء (سيرجي شيروبوف)، ساعتها شعر هذا الأخير بالحر، لتواجهه  
بمفرده وسط أسرة (فلاديمير)، وفي خجل شديد، أراد (سيرجي) الانصراف، إلا أن  
الزوجة (ميرا) رفضت ذلك.. وأبت، وأصرت على عدم انصرافه، بل وألحت عليه في  
طلب غريب وعجيب، لقد سألته في لهفة ممزوجة بالتوسل:

أرجوك يا مستر (سيرجي)..  
أريد أن أعرف كل شيء عن قصة زوجتك، الحبيبة (ناتالي).. أرجوك، أريد أن أعرف  
كل شيء، وكأنما كان ينتظر، أن يسأله أي أحد هذا السؤال، وكأنما لا يستحي أن  
يتحدث عنها، عن أعظم الكائنات، على وجه الأرض.. بالنسبة له، عن زوجته.

## الفصل الخامس

عندما سمع (سيرجي) اسم زوجته من (ميرا)، شرد ببصره بعيداً، وكأنه انفصل عنهم تماماً، بل وكأنه قد أصبح، في زمان غير الزمان، وفي مكان غير المكان، بل وكأنه بها ما زالت على قيد الحياة، وتحدث وتتسامر معه، ويسألها عن رأيها في قضاياها، ولكنه تذكر في النهاية أنها قد رحلت، وأنها غير موجودة، وأنها الآن في عالم أفضل بكثير من عالمه، وعندما تذكر هذه النقطة الأخيرة، ترقق الدمع في عينيه، وسالت دموعه غزيرة ساخنة على وجنتيه، بدون حياء أو خجل من أي أحد، وطأطأ هذا الأخير رأسه أرضاً في حزن، وانفصلت دموعه عن جسده، لتنبزل على الأرض غزيرة حامية، واحترم الجميع صمته وحزنه، حتى يخرج هو بمفرده من حالته هذه، ويتحدث.. وطوال دقيقة كاملة أو يزيد، لم يتحدث ثمة أحد.. أو يتحرك، وأخيراً وليس آخراً، تحدث في حرارة ممزوجة بالحزن الشديد، والذي لا يخفى على أحد، ثم قال بذات لهجته:

عندما تزوجت زوجتي الحبيبة، ولم يستطع إعادة ذكر اسمها، لأن سماع اسمها من أي أحد، كان يشوي قلبه شيئاً، ثم استطرد بذات لهجته:

تزوجتها عن حب، وليس عن مصلحة، ليس من أجل مال أو منصب، أو أي شيء في هذا العالم، سوى الفوز بحبها وقلبها، وعندما كُتبت علينا الحرمان من

الأطفال، زادنا هذا حباً وتعلقاً وشغفاً، وولعاً... وإخلاصاً، وطوال عشرون عاماً من حياتي، هي كل ما عشته في هذه الدنيا، فحياتي بدأت معها، وانتهت معها، وانتحب قليلاً.. ولم تستطع (ميرا) أن تتماسك أكثر من هذا، فشاركته الدموع على الفور، بينما استطرد هو:

ورحلت.. وعندما رحلت، رحل معها كل شيء في هذه الدنيا، وشرد ببصره المغرورق بالدموع بعيداً وهو يقول:

نعم لقد رحل كل شيء، الحب.. والحنان والإخلاص، و استطرد قائلاً بذات لهجته:

الإخلاص.. الذي أصبح شيئاً نادراً جداً في هذا الزمان..

وانتحبت (ميرا) عندما قال ذلك، واستطرد هو يقول:

لقد كانت بالنسبة لي كل شيء، لقد كانت عائلتي بأكملها، لقد كانت زوجتي وحببتي وعشيقتي، وشقيقتي وصديقتي وناصحتي، وأبي وأمي وأولادي كلهم، حتى المال.. فلقد كانت أعلى وأنفس من كنوز الدنيا بأكملها،

وانتحب مرة أخرى وهو يقول:

لقد كانت دائماً ما تنصحنني، بالعمل لصالح الفقراء فقط، لأن هؤلاء هم الشعب، هم الثروة الحقيقية في هذه الدنيا، وأن البؤساء في هذه الدنيا، هم

أخلص الناس، عندما نصنع لهم أي معروف، لأنهم يعرفون قيمة المعروف، أما الآخرين.. الأثرياء فلا، لأنهم يدفعون قيمة هذا المعروف، كانت رقيقة.. وتشعر برقة من حولها، واستدرك قائلاً:

ولكنني أبدأ لم اقتنع برأيها، ولم استمع لنصحها، وكنت مخلصاً.. مجدداً لصالح الأثرياء فقط، وأحياناً.. أو نادراً ما أقبل ببعض قضايا الفقراء من أجلها، وكانت تستغل حبي لها، وتجبرني على قبول بعض قضايا الفقراء، وحرصاً على حبي وإخلاصها، كنت أقبل من أجلها، واليوم.. وبعد أن ماتت، ورحلت عن عالمنا اتضح أن كلامها كله كان صحيحاً، وأنها كانت على صواب طوال الوقت، وأنني أنا كنت المخطئ، الغبي.. طوال الوقت، فبعد أن أصبحت بمفردي في هذه الدنيا، بلا صاحب أو صديق أو رفيق، وكلما ذهبت إلى أحد من الأثرياء، أو الأغنياء.. كانوا ينتظرون اللحظة التي انصرف فيها من عندهم، أما الفقراء البؤساء.. فكنت عندما أمر بجوارهم، ولا اتذكرهم.. يتذكروني هم، ويقوموا بالنداء عليّ، ويحسنوا استقبالتي وضيافتي.. وإطعامي، في الوقت الذي انتهت فيه كل نقودي، ولم يعد لدي حتى طعام يومي، بل لقد كانوا يتمنون، ألا انصرف من عندهم نهائياً، ساعتها.. وساعتها فقط، أدركت نصيحة زوجتي الغالية، وما كانت تقوله لي دائماً، بل وصاروا هم مع الوقت أصدقائي.. وأحبائي، بل واتفقوا معهم من الحين للآخر، وهم يفرحون بذلك ويسعدون، وكثيراً... كثيراً ما أكرموني وأطعموني، من بعد جوع...، بل وذات مرة.. أخذت من أحدهم، معطفاً لنفسي.. كي اتقي به شر البرد، واحتفظت بهذا

المعطف؛ لأنه كان بالنسبة لي، رمزاً كبيراً لصدق كلامها، وحلاوة ذكراها وذكرياتها،  
ثم شرد ببصره بعيداً مرة أخرى، ورفع يده وهو يقول:

هل تعلمون.. ذات مرة، غفوت على الكرسي الخاص بي، بدون غطاء.. وعندما  
استيقظت من نومي، وجدت نفسي والغطاء يكسوني، والغطاء يبعد عن سريري  
بحوالي مترين أو أكثر، فكيف حدث هذا؟

هل تحرك الغطاء بمفرده؟.

واهتزت يده.. وارتجفت شفتيه، وانتفض جسده.. وتقافزت الدموع من عينيه،  
وخفض صوته، وبحث لهجته، وانتحب مرة أخرى وهو يقول، وقد خرج كلامه غير  
مفسراً على الإطلاق:

لقد شعرت في هذا اليوم، بأن روحها قد حضرت إليّ، وبمنتهى الحنان.. هي  
التي قامت بتغطيتي، وفهمت (ميرا) ما قاله (سيرجي)، وعندها لم يستطع هذا الأخير  
التماسك، وشرع يبكي ويبكي، أو بمعنى أدق لقد شرعا يبكيان.. ويبكيان... ويبكيان..

\* \* \* \* \*

انتهى الاثنان من نوبة بكاءهما (سيرجي)، و (ميرا)، وشاركهما (فلاديمير)

أيضاً،

ثم قال الأول وقد كففك دموعه:

اعتقد أنني ازعجتكم اليوم، أكثر مما ينبغي، وقرن قوله بالفعل، وقام بكل حيوية ونشاط، ثم قال مستدرجاً مبتسماً:

ولكنني لا أنسى أبداً، من اطعمني.. وكل من اطعمني، اطلقت عليه لقباً، فقاطعه (ميرا) في صدق:

إن كنت أنت قد شبعت منا، فإننا لم نشبع منك بحق، يا سيدي.. واردفت كلامها بذات لهجتها:

وأرجوك منذ الآن... اعتبر هذا بيتك..

بل هو بيتك بالفعل، ولو أردت.. اقسم لك، فستكون لك غرفة مجهزة، خاصة بك، واطمئن لن يزعجك فيها ث.. وجاء عليه الدور ليقاطعها هو:

شكراً لكي يا عزيزتي (ميرا)، ثم وضع يديه على كتفها، ثم قال لها في صدق:

إنكي تذكيرني بزوجتي الحبيبة، ولذلك فأنا لن أنساكم أبداً، بل ولن أكف عن زيارتكم، وهنا جاء الدور على (فلاديمير)، ليقول في صدق:

صدقني يا سيدي هذا بيتك.. ونحن الضيوف فيه..

فقال (سيرجي) في مرح:

وردة الصحراء.. لقبكم منذ اليوم هو..

وردة الصحراء.. وشرعوا يضحكون.. ويضحكون، ثم اردف في صدق:

وتذكروا.. أني لا أنسى اسماً أو لقباً قط.. مهما حدث..

وانصرف (سيرجي) في هدوء، وذلك بعد أن وعدهم بزيارة أخرى، في

القريب العاجل.

## الفصل السادس

مضت الأيام في هدوء، وتعاقبت الشهور.. وكان (سيرجي)، يزورهم ما بين الحين والآخر، حتى جاء اليوم الذي حدثت فيه الطامة الكبرى، إذ انتشر في جميع أنحاء البلدة عن وجود طاعون رهيب، ووباء شديد يحيط بالبلدة الشمالية، وأن هذا الوباء قد قضى على معظم سكان هذه البلدة، وأن أهل هذه البلدة الشمالية، والذين استطاعوا الهروب، من برائن هذا المرض الفتاك، هم الذين أكدوا الخبر، ولأن البلدة التي يعيش فيها، بطل قصتنا (فلاديمير)، هي بلدة شبه صغيرة بالفعل، فقد انتشر فيها الخبر بأقصى سرعة، كانتشار النار في الهشيم، ولم يصدق سكان هذه البلدة، أمر هذا الوباء في البداية، رغم تأكيد سكان البلدة الشمالية، الهاربين من هناك للأمر بجدية، وبأقصى قوة.. حتى حدث ما حدث، حتى بدأ الأمر بالطيور والماشية، التي شرعت تتساقط كالذباب، ورغم ابتعاد سكان البلدة، عن جميع الهاربين من البلدة الشمالية الموبوءة، إلا أن ذلك لم يمنع من وصول وانتشار الوباء في البلدة، ثم شرع بعض سكان البلدة يتساقطون، وهم القريبون من حدود، البلدة الشمالية الموبوءة، وهنا بدأ الأمر يتخذ منحى آخر، ومنعطف جدي مختلف تماماً، إذ انتشرت أخبار تساقط الناس، في البلدة من جراء هذا الوباء الرهيب، كانتشار النار في الهشيم، ثم تساقط السكان الهاربون من البلدة الشمالية رويداً رويداً... و بدأ الوباء ينتشر في البلدة، وشرع الناس يتساقطون مرة أخرى، وكانت أعراض هذا

الوباء، هي السخونة الشديدة، ثم القئ الشديد، وقبل انتهاء اليوم، يكون صاحب المرض قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، ولأن الوسائل العلاجية في ذلك الوقت، لم تكن بدرجة وقوة الوسائل العلاجية، لهذا الوقت من الزمان، ولم يكن هناك أطباء حقيقيون، مثل أطباء هذه الأيام، ومن ثم فإن أطباء ذلك الزمان، قد عجزوا تماما عن إيجاد الوسيلة المناسبة، للحد من انتشار هذا الوباء، أو منعه حتى القضاء عليه، ومن ثم فقد استسلم الجميع لمصيره المحتوم، وإما استخدام الوسيلة الثانية الأكثر ضماناً، وهي الهروب إلى الجنوب، إلى أقصى الجنوب، وأصبحت النجاة من هذا الوباء الرهيب، محفوفة بالمخاطر فقد كان الجميع يجهل، ويتساءل في ذات الوقت...

ما السر وراء هذا الوباء الرهيب؟

كيف حدث هذا الوباء؟.

لماذا حدث هذا الوباء في هذا التوقيت بالذات؟

وما سببه؟

وما هي كيفية القضاء عليه؟

كيف السبيل إلى مواجهته.. والقضاء عليه؟

إلى متى سيستمر هذا الوباء؟

هل الهروب منه.. سيكون مجدياً؟

وإلى متى الهروب؟

وإلى أين؟

وإلى متى سيستمر هذا الهروب؟

هل سيستمر هذا الوباء إلى أن يقضي على جميع أنحاء البلاد؟

هل سيتوقف هذا الوباء بمفرده..؟ كما بدأ بمفرده.

أسئلة عديدة.. قامت الناس بتوجيهها إلى بعضها البعض، بدون أدنى إجابة، أو حتى إجابة واضحة أو شافية، حتى أطباء البلدة، لم يستطع أيّاً منهم الإجابة على أيّاً من هذه الأسئلة، على العكس من ذلك، شرع هؤلاء الأطباء يهربون إلى البلدة الجنوبية، للنجاة بحياتهم.. وحياة عائلاتهم، وعلى هذا الأساس شرع الجميع في الهروب وبلا استثناء، وأصبح من يمتلك حصاناً، أو بغلاً أو أحد رؤوس الماشية، وكأنما يمتلك كنزاً من الكنوز، فلقد أصبح الجميع يهاجر، إلى اتجاه البلدة الجنوبية، ويأخذ معه أقصى ما يمكن حمله، على هذه الدواب السالف ذكرها، ومن لا يمتلك أحد هذه الدواب، فإن عليه حمل متاعه بنفسه، وبالطبع فقد كان هذا الأمر، هو أمراً شاقاً مهلكاً، إذ تفصل البلدة الجنوبية، عن بلدتهم عشرات الكيلو مترات، فضلاً عن وجود غابة كثيفة ومتشابكة الأغصان، توجد ما بين البلديتين، فضلاً عن الطريق ليس ممهداً، فيما بين البلديتين، ومن ثم فقد كان

الطريق إلى البلدة الجنوبية، ليس سهلاً.. بل شاقاً، وعسيراً إلى أقصى حد ممكن، فضلاً عن الحيوانات البرية التي تملأ هذا الطريق، والتي تعج بها تلك الغابة المتشابكة، وهكذا فإن الهروب أو النجاة بالحياة، لم يكن سهلاً أو ممهداً أبداً، وعندما اجتمع معظم أهالي البلدة، فلم يجدوا مفرأً أو مناصباً، سوى طريق الهروب، إلى حيث أقصى الجنوب، أو بمعنى أدق... البلدة الجنوبية، وهم يدعون ويتوسلون بالألا يلاحقهم هذا الوباء إلى حيث هناك، وإلا فسيظلوا يهربون طوال عمرهم، وذلك للنجاة بحياتهم، وعندما بدأ (فلاديمير) وأسرته، في الإعداد لرحلة الهروب، إلى حيث البلدة الجنوبية، نظر الجميع بلا استثناء، والقهر والحسرة تملأ قلوبهم قبل عيونهم، ونظروا جميعاً إلى حيث بيتهم، ومسقط رأسهم وموطنهم، وشرعوا يبكون ويبكون ويبكون، وفي حزن شديد شد الجميع الرحال، و كانت الأسرة مكتملة، وكان يمتلك زوجاً من الأحصنة، وخمس من البغال، وهكذا ركب الجميع، وجمعوا حاجاتهم وأشياءهم وملابسهم، وعلى هذه الدواب وضعوها، وقبل أن يبدأ الركب في التحرك، حدثت الطامة الكبرى، فلقد أصيب توأميه الثاني، ذوي الثلاثة عشر عاماً بالوباء، وأصيب الأب والأم والأشقاء بالرعب، وعلى الرغم من أن أحداً، لم يكن يعرف أبعاد هذا الوباء.

وكيف يصيب الدواب والبشر؟

وهل هو معدي أم لا؟

إلا أن جميع أهل البلدة، ابتعدوا عنهم في سرعة، وأصيب الأب والأم بالجنون، وهم يرون فلذات أكبادهم، هكذا تذوى وتذبل أمامهما، ولم يعرف ثمة أحد، ماذا يجب أن يفعل؟

وكيف السبيل على انقاذهما؟

ولماذا اختار هذا الوباء اللعين؟

ولديه هذين بالذات.

ولماذا انتخبا دوننا عن الباقي، وتمنى الأب والأم انقاذ فلذات أكبادهم، ولكن بلا فائدة، وكم تمنيا أن يدفعا عمرهما في سبيل نجلهما، ولكن أيضاً بلا فائدة.

وتساءلا... كيف يمكن انقاذهما؟

وهل يمكن انقاذهما؟

ولم يطل عذابهم، فبعد ثلاث ساعات تقريباً، مات نجله.. فلذات أكبادهم، أمام الجميع.. أمام أعينهم، دون أن يستطيع ثمة أحد إنقاذهم، وبعد الصراخ والنواح والحزن، لم يجد الأب مناصاً من دفن نجله أمام المنزل، وتحولت ذكريات المنزل السعيدة، إلى مقبرة نجله، وشرع هو ونجله التوأم الأول، يحفرون ويحفرون.. ليواريا سوءة نجله التراب، قبل غروب الشمس، وبعد أن انتهى الجميع من دفنهما، جلس الجميع على مقبرتهم، وشرعوا يبكون ويبكون.. ويبكون.

## الفصل السابع

انتهى الجميع من نوبة بكائهم، بعد أن انسكبت انهاراً على مقبرتهما، ولم يستطع ثمة أحد في الوجود كله، أن يمحو أثر السكين الحامية، التي توسطت فؤادهم، وادمت مشاعرهم وقلوبهم، على نجمليهما وفلذات أكبادهم، وعندما بدأت الشمس رحلتها الطبيعية في السماء، شرع الركب في التحرك، وذلك بعد أن فقد الأب خمس عائلته دفعة واحدة، وكانت البلدة تقريباً شبه خالية، فقد أصر البعض على فكره، قد يقتنع بها البعض، وقد لا يفضلها البعض الآخر، وهي أنه إذا كان الموت لأت.. أت، ولا ريب فيه.. فليمت الشخص، في موطنه.. وفي داره، بدلاً من الهروب مما لا نجاة منه، وبدلاً من أن يموت الإنسان غريباً شريداً، أو متسولاً وربما على الطرقات، وكانت وجهة نظر لها احترامها، ومؤيديها ومنفذيها، وخرج الركب من البلدة، وهم يشعرون بأن رائحة الموت، تلاحقهم في كل مكان، ومن جميع الإنحاء والأرجاء والاتجاهات، وبعد أن خرج الركب من الطريق العام، والذي استغرق ذلك حوالي ثلاث ساعات كاملة، عبروا خلالها الطريق في الشمس الحارقة، وأخيراً وليس آخراً، شرع الركب في الدلوف إلى الغابة الكثيفة، والمتشابكة والوارفة الأشجار والأغصان، وتولى الجميع إلى ظل شجرة كبيرة، يستريحون أسفلها من حرارة الشمس، ومن شدة ووعورة وعتاء السفر والترحال، وذلك بعد أن قطعوا ربع المسافة تقريباً، وبعد حوالي ساعة تقريباً، غفا الأب خلالها وأخذ فيها سنة من النوم، استيقظ على

الفاجعة الكبرى، فلقد أصاب المرض والوباء، الجميلة.. العزيزة الغالية، الزوجة الحنون.. الرؤوم (ميرا)، القلب الماسي لهذه العائلة، ومركز الحركة والحنان فيها، وتفتت قلب الأب إلى ملايين الأشلاء الصغيرة، والتي لا تُرى بالعين المجردة أبداً.. أبداً.

لم يدرك (فلاديمير).. هو وأولاده، ماذا يفعلون؟.. وماذا يصنعون؟

بعد إصابة الحبيبة من ناحية، والأم الحنون من ناحية أخرى، فقد كانوا بمفردهم في هذه الغابة اللعينة، التي أصابها الوباء اللعين أيضاً، وافترش معظم حيواناتها بلا استثناء، أرضية الغابة.. ولاحت وفاضت رائحة المرض والموت، في هذه الغابة اللعينة، حيث سبقهم ذلك الوباء اللعين إليها، وانتشر وتفشى المرض فيها، وأصبحت أخطر من البلدة ذاتها، بمجرد دخولها.. سيما وأنها الطريق الأقرب، إلى حيث البلدة الجنوبية، فضلاً عن أنه وبعد فناء معظم حيوانات الغابة، وافتراش طريق الغابة بهذه الحيوانات، ومن ثمَّ فلم يعترضهم ثمة أحد، في خلال الطريق كله، وانفطر قلب الزوج العاشق، وانشطرت قلب الأبناء تماماً، وفي عجز كامل احتضن الزوج زوجته، وشرع الجميع في البكاء بانهيار، واحتضن الزوج المكوم زوجته، في عذاب ممزوج بالهفة والاشتياق، بينما هي كانت تحتضر، وتعيش لحظاتها الأخيرة، إلا أنها استطاعت الهمس في حب:

حبيبي.. اعرف أنني لم أكن مثال الزوجة الكاملة، التي كنت تتمناها طوال

عمرك، فهمس لها في عشق:

اصمتي.. يا حبيبتى.. اصمتي، ولكنها اردفت بذات لهجتها:

ولكن عزائي لديك.. بأني كنت وما زلت، مثال الزوجة المخلصة لزوجها،  
والوفية لبيتها وأولادها، فهمس في أذنها متوسلاً وموجة النحيب والبكاء بين أولادها  
تتصاعد:

ارجوكي.. اصمتي... ارجوكي، ولكنها اردفت في إخلاص:

اصفح عني يا زوجي الحبيب، وحاول أن يقسم لها بأنه يعشقها، ويدوب في  
هواها، ولا يوجد ثمة شيء فيما بينهما، حتى يغفر لها أو يصفح عنها، لقد كان الزوج  
في هذه اللحظة بالذات، لا يتذكر لها أي شيء سيء على الإطلاق، وعلى الرغم من  
الغصة الكبيرة، التي امتلأ بها فمه وحلقه، إلا أنه قال بصوت متحشرج:

أنني اعشقتك.. ولن أنساكي، مهما طال الدهر.. اقسم لكي، فقالت  
بصعوبة شديدة وهي تكاد تشعر بدنو أجلها:

أولادي... أولادي.. حافظ عليهم، احمهم.. فليس لهم في هذه الدنيا سواك  
من بعدي، ولم يطل عذابها، ولحقت بأطفالها بأسرع منهم، فالشيء الذي لم يعلمه  
أحد منهم حتى وافتها المنية، بأن المرض قد أصابها منذ دلوفها، إلى هذه الغابة  
اللعينة، ولكنها تماسكت.. وتحملت في صبر وجلد بالغين، وكلما كانت تشعر بالرغبة  
في إفراغ ما بجوفها، كانت تنزل من دابتها، وتذهب خلف شجرة كبيرة، متدرة  
بقضاء حاجتها، حتى لا يشعر بها ثمة أحد، وعندما أصبح الأمر لا يطاق، انفلتت..  
وتقطعت جميع حبال الصبر منها، ثم نزلت من على دابتها هذه المرة، ثم سقطت  
فاقدة الوعي، وذلك حرصاً منها على ألا تؤذي، هذه الأسرة الصغيرة.. المنكوبة،



أشقيائهم، ولاسيما وأن والدهم كان منشغلاً تماماً بمناجاة زوجته الحبيبة الراحلة، وتفتق ذهن التوأم عن فكرة جهنمية، وذلك لمساعدة والدهما وراحته، ولكن تُرى ما هي هذه الفكرة الجهنمية العبقرية؟

لاسيما وقد أدرك كلا منهما، أنه لا مفر ولا مناص من مواجهة الموت، الموت الذي اختطف أشقيائهما في البداية، ثم أمهم الحبيبة عقب ذلك، واستغل التوأمين فرصة انشغال والدهم، تماماً بوداع زوجته الحبيبة.. ومناجاتها، كما استغلا انشغال أشقيائهم، بوفاة أمهم.. ووداع الجميع لها.

## الفصل الثامن

لقد فكر أولاده التوأم الأكبر، أنه ما دام الموت آت.. آت، ولا رب فيه.. فقد شرعا كلاً منهما، في حفر قبرهما حتى لا يتعب والدهم، رغم آثار التعب والإعياء الشديدين، اللذين لحقا بهما من جرّاء هذا الوباء اللعين، وخلف الشجرة الكبيرة، شرعا الاثنان يعملان ويعملان، ويحفران.. ويحفران مستترين بالظلام، وذلك حتى حصلا على مبتغاهما نسبياً، وأخيراً وليس آخراً.. سقطا، واستطاع أحدهما بالكاد، أن ينادي على والده، الذي كان قد ذهب في غياهب الظلمات، وأخذته سنة شديدة من النوم، على قبر زوجته من شدة الحزن والبكاء معاً، واستطاع أحد أبناءه من التوأم الثالث، إيقاظ والدهم.. الذي انتفض في رعب، وكأنما كان يشعر بأنه في عالم آخر، وربما في كوكب آخر، وذهب إلى حيث نجله الأكبر، الذي افترش جسده الأرض من شدة الإعياء والمرض الشديدين، وهرول الأب ناحيته، ورفع رأس نجله على ذراعه الأيسر، وقال الابن في حزن وهو يحتضر:

لقد حفرنا قبرنا أنا وشقيقي، حتى لا تتعب يا أبي..، الوداع يا أبي، الوداع يا أفضل أب في هذا الوجود، الآن سوف نذهب إلى من نحب، أشقائي.. وأمي، وارتخي جسد الابن، وفاضت روحه إلى بارئته، بين يدي واحضان والده، ونظر الأب إلى حيث جانبه الأيمن، فوجد جسد نجله الثاني وقد افترشت الأرض، والقبر بجواره مفتوح

وجاهز، وينتظر في صبر هاتين الجثتين الطازجتين، وانهار الأب تماماً، ولم يدر ماذا يفعل في البداية؟ و انفجرت كلتا عينيه بالدموع، وشرع يبكي وببكي وببكي، ثم شرع يصرخ.. ويصرخ.. ويصرخ.

ورددت أصداء الغابة صرخاته طويلاً، ولكن.. هل من مجيب..؟ هل..؟.

\* \* \* \* \*

انتهى الأب من وضع جثتي نجليه في قبرهما، ثم قام بتغطيتهما كما فعل مع أمهم، وحاول أن يواريهم التراب، وأن يغلق قبرهما، ولكنه لم يستطع، فقد تلقى من الضربات ما ينوء بحمله الجبال، وحاول أن يمسك معوله، ليغلق قبرهما.. ولكن المعول كان بالنسبة له، ثقيلاً جداً جداً، فقد كان في ثقله كالطود العظيم، وأخيراً.. وليس آخراً، قاوم الأب دموعه وأحزانه، وترك دموعه تنسكب مع التراب، وهو يحثو التراب على جثتيهما، اليوم.. واليوم فقط انكسر ظهره، وذهب لحمه وعظمه، وأول فرحته.. الرجلين اللذين كانا دائماً في ظهره وبجواره، ومعهما ذهبت الحبيبة الغالية، ذهبوا كلهم.. ذهبوا جميعاً بلا رجعة، وأحاط به باقي أولاده، التوأم الثالث ذو السبع سنوات، والتوأم الرابع ذو الثلاث سنوات، واحتضنت الأبناء جميعاً أباهم، وهم ينشدون منه الحماية والحنان، والعجيب والغريب.. وعلى الرغم، من أن هؤلاء الأطفال الصغار، أصبحوا كل ما تبقى له في الدنيا كلها، ولكنه ولشدة حزنه وكمدته، لم يشعر بهم، أو تقريباً لم يرههم، كانوا كالظلال بالنسبة له، وليسوا حقيقيون

ولكنهم لم يشعروا بذلك، فقد جلس توأمه الرابع على فخذيته، وأحاط به التوأم الرابع في خوف شديد، ودارت في رأسه فكرة عجيبة جداً جداً، وهو ألا يبارح مكانه هذا قط، وما دام الموت آت.. آت ولا ريب فيه، فليمت ههنا بجوار حبيبته.. وفلذات أكباده، وأن يعكف ههنا.. في انتظار الموت، وفي تلك اللحظة بدأت دوابه، وحصانيه في السقوط أمام عينيه، الواحد تلو الآخر.. والدابة تلو الدابة، انتهاءً بالحصانين، ونظر الأب إلى هذه الدواب النافقة، بنظره خاوية.. بلا أدنى شعور أو مشاعر، ونسى أو تناسى بأن هذه الدواب، هي وسيلته الوحيدة في الخروج من هذه الغابة اللعينة، والخروج من مأزقه هذا، بل هي وسيلته الوحيدة، في حمل متاعه وحقائبه، وكل ما يخصه ويخص أولاده، وعندئذ نام الأب ملئ عينيه، وكأنما ارتاح فكره إلى هذا الخاطر، ونسى الأب كل شيء، حتى أولاده الذين هم، كل من تبقى له في هذه الدنيا، كان قد نسيم تماماً، وارتاح ضميره – رغم ذلك – لذلك، وعلى الرغم من أن الأب، كان حريصاً في البداية من أن ينام، تجاه غروب الشمس، ولكن حزنه وكمدته، وحالة الاكتئاب الرهيبة التي سيطرت عليه، جعلته ينام دون أن يدرك جهة الشروق.. من جهة الغروب، واستيقظ الأب مع أول خيوط للشمس، استيقظ مستاءً منزعجاً، عندما ضربت الشمس عينيه ووجهه، ثم كانت الطامة الكبرى، والتي كانت أقوى بملايين المرات، من مجرد أشعة الشمس، لقد مات اثنين من أطفاله كل من تبقى له في هذه الدنيا، الولد ذو السبع سنوات، والبنات ذات الثلاث سنوات، بينما جلس أشقائهم يبكون عليهما، في صمت حزين مهيب، وكأنما كانوا يخشون إيقاظ وازعاج والدهما، والذي لم يشعر بهم، وببكاؤهم على أشقائهم

بحق، ونظر الأب المكلوم في حزن شديد، إلى جثتي نجليه.. وهو يتساءل، لماذا اختار الموت كل هؤلاء حتى الآن؟ متى يحين أجلهما؟.

هل سيبقى نجليه هذين؟

أما سيذهبا مع من ذهبا من أولاده الأعزاء؟

وهكذا نظر الأب إلى المعول الحديد، الذي استخدم كثيراً منذ الأمس بنظرة حسد.. وقال الأب:

ألا تموت أنت أيضاً..!

ألا تفنى أيها اللعين..!

وفي ضعف ممزوج بالوهن الشديد، شرع الأب يحفر.. ويحفر، واستغرق الأب في هذه المرة، فترة أطول من كل مرة، فقد انتصف النهار تقريباً وهو ما زال يحفر، وتذكر كلا من نجليه الأول... الكبيرين، واللذين قاما بحفر قبرهما بنفسهما، لإراحة والدهما.. ثم وبكل قسوة، حثا هو التراب على جسديهما، عندئذ انتفضت أطراف جسده كلها، وجثا بركبتيه أرضاً، واستند الأب على معوله، وأحاط به طفليه، بعد أن شعر بالذنب الكبير، وعظيم التقصير تجاههما، وتذكر وصية أمهما العزيزة الراحلة من قبل، والتي اخترقها وخانها بكل صفاقة، وعندئذ احتضن نجليه المتبقيين، كلا من (إلينا).. و (يوجي)، وشرع الأب معهم، ليكون ويبكون.. ويبكون، ولكن الأب استجمع قواه وإرادته وعزيمته، وقام بنقل جثتي طفليه

الراجلين إلى حيث قبرهما، وحمل الأب كل طفل على حده، وطال احتضان الأب لهما قبل دفنهما، وكما فعل الأب مع أسرته الراحلة، فعل معهما أيضاً، حيث قام الأب بتغطية وجهي نجليه ببعض من ملابسهم، قبل أن يحثو التراب على أجسادهما، وأصبحت هذه المنطقة رسمياً هي مقبرة العائلة.. ومدفنها، وحفظها الأب جيداً، وقام بتعليمها.. ورسم خطوط طولها وعرضها في رأسه، حتى لا ينساها في يوم من الأيام، ومع وضع بعض الأحجار والفروع، كشاهد على قبرهما، جلس الأب يبكي.. ويبكي.. ويبكي، وهذا الوباء اللعين، قد أكل والتهم معظم عائلته تقريباً، وتساءل مرة أخرى في اهتمام، متى يحين دوره؟

هل سيموت هو الأول؟

أم سيموت أولاده في البداية؟

فإذا مات هو الأول...، فمن سيرعى أطفاله؟

أيجب عليه أن يقتلهم هو...!

بدلاً من انتظار الموت... بلا فائدة..

نعم هذه هي أفضل فكرة، قتلها.. فما دام الموت آت.. آت، ولا ريب فيه... فليموتا على يديه هو، بدلاً من أن يلتهمها ذلك الوباء اللعين، ولكن سرعان ما انفجرت وصية الأم الحبيبة في رأسه، لتطرد كل أثر، لهذه الفكرة الشيطانية اللعينة، وهز الأب رأسه في عنف شديد، وكأنما يتقين، من طرد هذه الفكرة اللعينة من رأسه

وعلى الرغم من كل ما أصاب الأب، من مصائب وأهوال ومصاعب، فقد اتخذ قراراً غريباً، وهو أن يأكل.. ويتقوت، هو ونجليه.. حتى يستطيعوا الصمود، والوقوف مرة أخرى على أقدامهم، على الرغم من أنه لم تكن له أي رغبة في الطعام، أو أدنى شهية له، ولكنه قرر أن يأكل، فربما ليس هذا هو يوم الموت بالنسبة لهم، وجلس مع طفليه الوحيدين، واحضر الطعام.. وشرعوا يأكلون.. ويأكلون.. ويأكلون. في نهم شديد..

وكان شيئاً لم يحدث..، فالحياة يجب أن تستمر..، مهما حدث.. ومهما كانت المصاعب، ومهما كانت الظروف.

## الفصل التاسع

انتهى الأب من طعامه هو ونجليه، وسرعان ما جال ببصره لهذا المكان، وشرع يرسم أرجاءه وأركانه، ويرسم إحداثياته بكل دقه، فربما يعود إليه مرة أخرى، في يوم من الأيام، فقد أصبح هذا المكان، هو مقبرة ومدفن هذه الأسرة بحق، وربما تمر الأيام.. وتمر السنين، وقد يعودوا إليه مرة أخرى، نعم.. من يدري؟ وألقى الأب نظرة الوداع الأخيرة، على مقابر أسرته، وسرعان ما راح يتلو صلواته، على كل مقبرة على حده، وبعد أن انتهى من ذلك، القى نظرة الوداع الأخيرة أيضاً على دوابه النافقة.. وحصانيه، فهذه الدواب كان يعشقها، لدرجة أنه كان يعتبرها جزء، لا يتجزأ من هذه العائلة الكريمة. وحمل جزءاً يسيراً من متاع نجليه، ومتاعه الخاص به، وترك بالطبع متاع زوجته، وأولاده الذين رحلوا عن هذه الدنيا، مع جزء غير قليل من الطعام، وطلب من ابنته العزيزة (إيلينا)، أن تتحامل على نفسها، وأن تمشي معهم هذا الطريق الطويل، وهذه الرحلة الشاقة الرهيبة، وأما عن (يوجي) ذو الثلاث أعوام، فقد كان هذا الأخير يمشي تارة، ويحمله والده تارة أخرى، وهكذا حتى غابت الشمس، وأقبل الليل بظلامه المرعب، وسكنت الغابة من كل شيء، ونام نجليه من شدة التعب ملئ عينهما، وشرع الأب يحرسهما في تحفز ممزوج بالصبر، خشية أن يختطف الموت، أحد نجليه مرة أخرى، وكأنه يعتقد بأن لديه القدرة على أن يمنع الموت، من اختطاف أحد نجليه، إذا أراد الموت ذلك، ولكن هيهات.. فلن يجزؤ

مخلوق واحد، مهما كانت قوته وجبرته، على مواجهة الموت، المهم.. أن النوم قد هزم الأب هذه المرة، من شدة الإرهاق والتعب، وعلى أول ضوء من أضواء الصباح، وقبل أن تبرز الشمس من مشرقها، استيقظ الأب منتفضاً، مرتعداً.. مرتعشاً.. خشية أن يكون الموت، قد اختطف أحد نجليه.. أو كلاهما، وعندما استيقظ الأب، أبصر نجليه وهما نائمين، وعلى قيد الحياة، والدليل على ذلك أن في صدرهما نفس يتردد، ولم يصدق الأب نفسه من شدة الفرحة، وحمد الله سبحانه وتعالى، وقبل كلاً منهما بمنتهى الرقة، ثم شرع يبكي.. وببكي وببكي، ولم يشأ الأب ازعاجهما بإيقاظهما، وتركهما كما هما، وقام بتغطية نجله (يوجي) جيداً، ثم اكمل الأب نومه، ولكن نام في اتجاه غروب الشمس، حتى لا تقوم الشمس بإزعاجه مرة أخرى، ونام الأب هذه المرة ملئ عينيه، نام كما لم ينم من قبل، وذلك حتى ظل شجرة كبيرة، واستيقظ الأب على انغام وضحكات نجليه البريئة، وابتسم الأب في فرحة وسعادة، ابتسم ابتساماً لم تزر وجهه الجميل، شعر معها وكأنه الدهر كاملاً، من شدة وقسوة ما مر عليه من أحزان ومصاعب، واعتدل الأب وجلس، واتكى بظهره على جذع الشجرة التي يستظل بها، وشرع ينظر إلى نجليه، اللذين يلعبان ويضحكان، في مرح وسعادة، وكان شيئاً لم يحدث، وقرر الأب أن يجلس ويلعب مع نجليه، وأن يستريح من وعناء السفر، فليس ورائهما أي شيء.

\* \* \* \* \*

انتصف الليل.. وخيم الظلام على المكان، وقام الأب بإعداد طعام العشاء، لنجليه.. وشرعوا يأكلون ويأكلون، ثم نام الجميع مرة أخرى، في هناء وسرور، وهكذا

مضت الليلة الثانية على الأب في هذه الغابة اللعينة، ولكن وقبل أن ينام الأب، شرع هذا الأخير يفكر ويفكر، ماذا سيفعل بعد الوصول إلى البلدة الجنوبية؟

ماذا سيعمل بعد الوصول إلى هناك؟

أين سيسكن هناك مع نجليه؟

وكيف ذلك؟

كيف سيبدأ حياته هناك؟

من سيرعى أطفاله هناك؟

هل سيرعى أطفاله هو هناك؟

هل سيقدر على ذلك؟

كيف ستكون الحياة هناك؟

ولكنه ترك الأمر عندما يصل إلى هناك، ولكن الغريب والعجيب أنه شرع يفكر ويفكر، بينما كان القدر يخبئ له شيئاً آخر، شيء مختلف... لن يخطر على بال أي أحد.

\* \* \* \* \*

استيقظ الجميع في الصباح، وأجسادهم قد امتلأت بالنشاط والحيوية، وعلى الفور قام الأب بإعداد طعام الإفطار لهم جميعاً. وبعد أن انتهوا جميعاً من الطعام، بدأت الرحلة الشاقة القاسية، وعندما انتصف النهار، كان الأب ونجليه على أعتاب تلك المدينة الجنوبية، ولكن بعد أن نال التعب والإرهاق، من الأب ونجليه منهم مبلغه، ووصلوا جميعاً وهم في قمة الإجهاد، وفوجئ الأب بعد أن دخل تلك المدينة، وأصبح داخلها بالفعل، بأن سوق هذه المدينة على أعتابها، أي في بداية هذه المدينة، ولم يكن سوق هذه المدينة، يختلف كثيراً عن سوق مدينته، بأي حال من الأحوال، وشرع الأب ونجليه يمشون في السوق، لاكتشاف ما هو الجديد في هذا السوق، واشترى الأب طعاماً له ولنجليه، بعد أن نفذ الطعام منهم، وكذا أحذية وملابس جديدة، واشترى مياه وقام الأب بغسل وجهه، هو ونجليه ونظر إليهما الأب، في إعجاب.. بعد أن تغير وتبدل شكلهما، من النقيض إلى النقيض، وفي تلك اللحظة، دخل إلى السوق أحد النبلاء، رجل نبيل بحق، بعربته التي يجرها أربعة من الأحصنة، مزدانة بالذهب والفضة، حتى الأحصنة فقد كان سرجها مرصع بالذهب والفضة أيضاً، ومن خلفه الحرس والعبيد، في موكب كبير مهيب، وانفض السوق واتسع لموكب هذا النبيل (ليونيد) في لحظات، ثم وفي صوت جهوري قوي، قال الحارس الرئيسي للجميع في وسط السوق:

سكوت... سكوت..

وصمت السوق في لحظات، وأشرأب الجميع بعنقه، إلى هذا الحارس، وإلى ما سيقوله، والذي سرعان ما قال بذات لهجته القوية:

الجميع يعلم بأن النبيل (ليونيد بيتروفيتش) لم يرزق بالأطفال، وهو هنا اليوم لشراء طفل أو اثنين، ليملأ عليه حياته وقصره، والآن على جميع تجار الرقيق، أن يتقدموا في انتظام شديد، وفي تلك اللحظة حضر أفراد من شرطة البلدة لحراسة النبيل أولاً، والحرص على حياته وراحته، وانتظام السوق ثانياً، وشرع تجار الرقيق والعبيد، يتقدمون الواحد تلو الآخر، ليقدّموا أجمل وأجود ما لديهم، من الأطفال.. ولنيل الرضا من هذا النبيل الثري، وهكذا مضى الوقت، ومضت أكثر من ساعة كاملة أو يزيد، دون أن يبدي النبيل إعجابه، بأي من الأطفال المعروضة عليه، وهكذا انتهى جميع تجار الرقيق، من عرض بضائعهم، بدون أي فائدة، وهنا.. وهنا فقط.. برقت في عقل الأب، (فلاديمير) فكرة مجنونة.. مجنونة بحق، وانفجرت بكل قوة، وأشعلها نار التعب والإجهاد والمشقة، وعدم العثور على المأوى، وقرب نفاذ نقوده، فقد اندفع بكل قوة، نحو النبيل.. ليعرض عليه، نجليه للبيع دون أن يفكر، ولو للحظة واحدة في عواقب هذا الأمر.. نهائياً..

## الفصل العاشر

لم يستغرق الأمر من الشيطان، سوى لحظات معدودة، ليسيطر على كل جوارحه، ويسلبه عقله تماماً، فقد اقتربت النقود من النفاذ، لا يوجد ثمة عمل حتى الآن، فضلاً عن أنه قد فقد كل شيء تقريباً، وطنه وسكنه وعمله وزوجته الحبيبة، وأولاده.. وعائلته كلها تقريباً، ولم يتبق له سوى هذين الطفلين، اللذين سوف يذوقا العذاب على يديه، بسببه.. عذاب الحرمان والجوع والتشرد، وربما يفقدهما لسبب أو لآخر، إذن فالعقل الصائب يقول، بألا يفقد كل شيء، فهو قد يتحمل كل شيء، كل العذاب.. والحرمان والجوع والتشرد، إذن فالأفضل لأولاده وفلذات أكباده، هو أن يعيشوا ويحيوا، حياة كريمة على الأقل بالنسبة لهم، أما هو.. فسوف يتحمل أي شيء وكل شيء، ليس من أجلهم فقط، ولكن ليعمل على استعادتهم فيما بعد أيضاً، من أجل ذلك.. فعل ما فعل، ومن ثم فقد اندفع الأب بكل جوارحه نحو هذا النبيل، الذي ظهرت على وجهه علامات عدم الرضا، وعدم الاقتناع بما يعرض عليه، من سلع ممثلة في أطفال، من جميع الأعمار ومن جميع الأشكال، بداية من عمر عام، وحتى عمر الخامسة عشر سنة، واستوقف الأب المكلموم، -والذي فقد عقله تماماً -، النبيل صارخاً:

انتظر.. انتظر.. يا سيدي..

وحاول الاقتراب من النبيل بقدر الإمكان، ولكن عبيده وحراسه منعه، من الاقتراب ليس لأكثر من مترين فقط، وهنا قال الأب في تضرع ممزوج بالرجاء:

انظر.. انظر.. يا سيدي، إلى هذين الطفلين الجميلين، واستعار بعض ألفاظ تجار الرقيق وهو يقول:

أنهما تحفة فنية بديعة، وآية في الجمال والروعة..!

في تلك اللحظة كان النبيل (ليونيد) قد وضع قدمه اليمنى، على أحد درجات سلم العربة الخاصة به، استعداداً للصعود والذهاب، والعودة إلى حيث قصره، فعاد وانزل قدمه، وشرع ينظر إلى الطفلين، في تأمل وإمعان شديدين، في ذات اللحظة أيضاً، أدركت الطفلة الصغيرة (إيلينا) كل ما يحدث حولها، وتخلى والدها عنها وعن شقيقها، فترقق الدمع في كلتا عينها، وهي تنظر إلى أبيها في ذهول، غير مصدقة لما يحدث وما يفعله بها أبيها وبشقيقها،

ثم قالت في توسل:

أبي.. أبي.. لا تبعنا يا أبي، لا تتركنا يا أبي.. أرجوك.

وشرعت تبكي وتبكي، وبالطبع لم يدرك الطفل (يوجي) ذو الأعوام الثلاثة ما يحدث حوله، وكان الطفلين جميلين مليحين نظيفين بحق.

وهنا انحنى النبيل وسمح للطفلين بالاقتراب، وشرع يفحصهما عن قرب، وساعتهما.. وساعتهما فقط.. يمكن القول بأن جميع تجار الرقيق، والذين كانوا متواجدين ومتجمعين حول عربة النبيل، شرعوا يرمقون (فلاديمير) المجهول بالنسبة لهم، بنظرات تموج بالحقد والغيرة والعداء، على الرغم من أن النبيل لم يشتر أي أحد منهم، ولكن هو هكذا، فهذا الغريب لم يعرفوا من أين جاء.

وكيف جاء؟

ومن أين حصل على هذين الطفلين؟

وكيف تدخل هكذا؟

وفكر أحدهم في التدخل لمنع هذه الصفقة، ولكنه لم يتجاوز مرحلة التفكير، وفي تلك الأثناء كان النبيل، يفحص هذين الطفلين بنفسه، وبعبارة شديتين، ثم سأل الأب في صرامة:

هل توجد بهما أية أمراض؟

فأجابه الأب على الفور، وهو ينحني نصف انحناءه:

كلا يا سيدي.. أقسم لك.

فسأله النبيل مرة أخرى بذات لهجته السابقة:

كم تبغي ثمناً لهما؟

فأجابه الأب وهو ينحني نصف انحناءه مرة أخرى:

ما تجود به يا سيدي..

فأخرج النبيل كيسين من النقود، ثم رماهما له دون أن يلتفت إليه، والتفت أحد الحراس إلى (فلاديمير)، ليوقع هذا الأخير على صك البيع، ووقع ثم قال لحراسه وعبيده أمراً:

احملوهما إلى العربة.. هيا..

وهنا صرخت الطفلة (إيلينا) بكل ما تملك من قوة:

أبي.. أبي.. وهي تبغي النجاة والاستغاثة به، ومما يحدث بها، وبكى معها الطفل (يوجي) دون أن يفهم لذلك سبباً، واستيقظ قلب وعقل الأب في هذه اللحظة البغيضة، المغيبين تماماً في هذه اللحظة، وانتفض قلب وعقل الأب، حزناً وندماً وحسرة على ما فعل، وانفجرت وصية الأم في رأسه، كألاف القنابل المدوية، حافظ عليهم.. أحمهم.. حافظ عليهم.. أحمهم، حافظ عليهم.. أحمهم، فليس لهم في هذه الدنيا سواك، فليس لهم في هذه الدنيا سواك، وظلت كلماتها تتردد وتتصاعد، وتتردد وتتصاعد، وانفجرت الدموع في كلتا عينيه، وشرع يبكي ويبكي، حتى انتفضت كلتا يديه الممسكة بأكياس النقود، وسقط كيسي النقود على الأرض، وانفتحا في

البداية، و شرعت الناس تقترب في حذر، وتخطف النقود في بطن، حتى هز الأب رأسه في عنف، وصرخ صرخة مدوية:

كلا... كلا.. كلا..

وتوقفت الناس خوفاً منه، اعتقاداً منها بأنه يصرخ فيها، ولكن عقله وقلبه شرعاً يؤنبانه في عنف شديد، كيف فعل ذلك؟، كيف تحول في لحظات إلى تاجر نخاسة حقير هكذا؟

ماذا فعل؟..

لقد باع ولديه.. فلذت أكباده..

الكنز الذي تبقى له في هذه الدنيا حتى الآن، بل إنه لا يملك سواه، وبعينين امتلأت بالدموع، وبجسد مكدود مجهد، أفاقته الصدمة فتحول إلى آلة للعدو أكثر منها للإنسان، وانطلق يجري خلف عربة النبيل لاسترداد ابناه، ولكن.. وكما يقولون:

هميات.. لقد سبق السيف العزل، وتجرات الناس أكثر وأكثر، عندما انطلق هو، وشرعت الناس تتقاتل وتتقاتل على هذه النقود. وانطلقت الضربات واللكمات والركلات في كل اتجاه ممكن، ونحو أي شخص للحصول على النقود أو حتى أي جزء منها، وتدخلت الشرطة لفض هذه المذبحة، ووصل الأب إلى مبتغاه، وأخيراً وليس آخراً، قام باللاحق بعربة النبيل، وشرع يصرخ ويصرخ حتى استوقفها، وهو ينادي على النبيل باسمه مجرداً، الأمر الذي أثار هذا الأخير إلى أقصى درجة

ممكنة، فأمر هذا الأخير بإيقاف العربية، للنيل من هذا اللعين الذي تطاول عليه، وناداه باسمه مجرداً وتجاهل لقبه تماماً، في تلك اللحظة كان أحد رجال الشرطة، قد انتبه إلى ما يحدث هناك.. عند عربة النبيل، فأشار إلى أحد زملائه، ليتبعه.. ليستطلعاً حقيقة الأمر، وكان هذا من سوء حظه، للأسف.

## الفصل الحادي عشر

(ليونيد).. أعد لي أطفالاً أيها اللص الحقير..

صرخ الأب المكلوم بهذه الكلمات، في قوة ممزوجة بالصرامة الشديدة، ولدتها أشياء كثيرة، منها الحزن والندم والحسرة، واختراق وصية الزوجة الحنون، وأخرج (ليونيد) جزءاً من رأسه وهو يقول في غضب شديد:  
ستدفع ثمن هذه الكلمات غالباً أيها اللعين، واستدرك قائلاً:

ولكن لماذا تقول ذلك؟.

فأجابه الأب بذات لهجته:

أعد لي أطفالاً..

- ليونيد..

لقد بعتمهم بملئ إرادتك، وقبضت ثمنهم.. وصك البيع ما زال في يدك، ساعتها.. انتبه الأب إلى هذه الحقيقة، فما زال يحتفظ بالفعل، بصك البيع في يده، حيث بُهت هذا الأخير، لوجود واحتفاظه بهذا الصك إلى الآن، فقال الأب بذات لهجته:

سارد إليك نفودك.. واعد لي أطفالى..

هم.. هيهات.. انت واهم..

وصرخت ابنته باكية من داخل العربة:

أبى.. أبى..

وَجُن جنون الأب بعد سماعه لهذه الكلمات، وانطلق الوحش الكاسر الكامن في أعماقه، وهذا الأخير يقول

إذن ساستعيدهم بالقوة إذن..

وهجم هذا الأخير على العربة لاستردادهم بالقوة بالفعل، ولكن هيهات.. لقد كان الأب بمفرده، واعزل من السلاح، وهم كثير كثير.. بحق، ولأول وهلة.. بدا لهم بأنه سيمزهمهم، حتى وصل حارس الشرطة، وضربه أحدهما ضربة شديدة بالعصى على رأسه من الخلف، وترنح لها الأب لحظة، كان العبيد والحراس قد استجمعوا قواهم، وأسواطهم.. وانهالوا عليه جميعاً بالضرب، ولأن الكثيرة تغلب الشجاعة، ولكن هذا لم يحدث معه، لقد استجمع الأب كل قوته، ووجه لكمة شديدة إلى أقرب مهاجميه، وانفجرت هذه اللكمة في عين حارس الشرطة المسكين، الذي فقد عينه على الفور، وفقاً هو عينه، وتكالب عليه الجميع مرة أخرى، بمنتهى القوة حتى سقط ارضاً، وانهاالت عليه الضربات والركلات، وضربات الأسواط من كل جانب، حتى امتلأ جسده بالدماء والكدمات، واثخنه الجراح في كل مكان، ولكن ليس مثل

جرح قلبه، الذي لن يندمل أبداً.. أبداً، مهما طال الدهر.. ومضى، وسقط الأب  
بينهم فاقد الوعي.

\* \* \* \* \*

فحملوه واقتادوه إلى حيث دار القاضي، وألقى أحدهم دلواً مليئاً بالماء،  
على وجهه ليستيقظ، وانتفض الأب المسكين، من شدة برودة الماء، وفوجئ بنفسه  
مقيداً وما زالت آثار الدماء تغطي معظم جسده، بل وجد بعضها في فمه بالفعل،  
فبصق هذه الدماء في قوة، وسأله القاضي في صرامة:

هل ضربت هذا الحارس المسكين وأنت تقاومه حتى فقأت له عينه؟

فنظر (فلاديمير) إلى حيث الحارس، والذي ما زالت عينه تنزف، ولأن هذا الأب  
المسكين لم يعتد على الكذب، ولأنه فعل هذه الجريمة بحق، فقد أجاب بمنتهى  
الصدق:

نعم..

ولم يسأله القاضي.. لماذا ضربته؟

أو ما هو سبب ذلك؟

بل نطق هذا الأخير بحكمه على الفور:

## السجن خمسة عشر عاماً.

ثم ضرب تلك القطعة الحديدية، بمطرقته.. معلناً انتهاء الجلسة، وانتهاء القضية.. إلى الأبد، واقتادوا الحارس إلى حيث الطبيب، واقتادوا الأب المسكين إلى حيث السجن، أو بمعنى أدق.. إلى حيث الجحيم.

\* \* \* \* \*

النعيم.. والجحيم، كلمتان متناقضتان، ولكن هكذا أصبح هو حال الأطفال، وهكذا أصبح هو حال الأب، وفيما بعد عرف الأب وهو يقتادوه إلى السجن، من هو النبيل (ليونيد بيروفيتش) إنه أحد أشهر النبلاء في البلدة وأقواهم، وأكثرهم شهامة ومروءة وكرماً، واشجع الفرسان بلا منازع أو منافس، مختصر قصته أنه قد تزوج، منذ أكثر من عشر سنوات، من إحدى الأميرات الفاتنات بحق، وكان يعشق كلا منهما الآخر، إلى حد الجنون المطبق، ولكنهما في ذات اللحظة، كُتب عليهما نعمة الحرمان من الأطفال، ولم يؤثر ذلك على حبهم وعشقهم، وظل مخلصاً لزوجته، حتى أصابها المرض، وعجز الأطباء عن شفاءها، ثم ماتت ولقيت حتفها، وهي على فراش المرض، وكلا منهما ما زال مخلصاً للآخر، ولقد توفيت زوجته حديثاً، فلم يمر على وفاتها العام حتى الآن، ورغم ذلك ظل وفيّاً ومخلصاً لها، واقسم ألا يتزوج بعدها، وألا يدنس فراشها بامرأة أخرى، مهما كان جمالها وفتنتها، ولكنه قرر في نفس الوقت أن يتبنى طفلاً.. أو اثنين أو حتى

ثلاثة، صحيح أن التبني لن يعوضه نعمة الحرمان من الأطفال، أو ليس مثل الأطفال الذين، يأتوا من ظهره.. ومن صلبه، ولكنه فكر كثيراً في هذا الاختيار، وارتاح أكثر وأكثر لهذا القرار، فضلاً عن أنه كان هناك هاجس يدور في رأسه، ويكاد يقتله.. ويأكله حياً، فماذا ولو تزوج بأخرى ولم ينجب؟

ساعتها لن يكون العيب من زوجته الحبيبة، بل سيكون العيب منه هو، وهكذا ارتاح النبيل لاختياره وقراره، وعندما ذهب في هذا اليوم، كان من أجل هذا السبب، وجميع من في البلدة يعلمون بذلك، ولا أحد يدري.. هل كان ذلك من سوء حظ (فلاديمير)؟

أم من حسن حظ أولاده!..!

هل كان من حظه العسر؟

أن تقابلا مصادفة في ذلك اليوم، وألقاه القدر في طريق ذلك النبيل، أم لا..؟ وبعد أن آلت الأمور إلى ما هي عليه الآن، فإن عليه أن يستسلم لقدره ومصيره، لأن المقاومة ليس معناها، سوى المزيد من المشقة... والعذاب.

\* \* \* \* \*

هناك في قصر (ليونيد)، ظلت (إيلينا) تبكي وتبكي، ساعات كثيرة على والديها، وأشقاءها بعد أن فقدتهم جميعاً هكذا مرة واحدة، وطال بكائها.. وبأنت كل محاولات تهدئتها بالفشل الذريع، أما (يوجي) فلأنه كان أقل إدراكاً، وبالتالي كان من

السهل تهدئته والسيطرة عليه، وإلهائه بأي شيء.. مثل أي طفل، وفي النهاية جلس  
(ليونيد) مع (إلينا) ثم سألها بلهجة تموج بالحنان الدافق:

ماذا تريدان الآن يا (إيلينا)؟

فأجابت في انفعال:

أريد أبي..

فقال لها بذات لهجته:

لقد سافر والدك إلى مشوار طويل، وتركك عندي كأمانة وعندما يعود.. سوف  
يستردك،

إلا أنه قاطعته باكياً صارخة:

أنت كاذب.. كاذب..

وعلى الرغم من الإهانة الصارخة له، من هذه الطفلة الصغيرة، ولكنه تحامل على  
نفسه وهو يقول لها:

صدقيني يا حبيبتي... سيعود والدك في القريب العاجل، واقسم لكي.. أنك ستذهبين  
معه حينذاك، فإجابته بذات لهجتها:

أنت كاذب.. كاذب.. لقد أمرتهم بضرب أبي..

ساعتها.. وساعتها فقط، شكر الله سبحانه على عدم الإنجاب، وهو يقول في نفسه:

اللعنة وألف لعنة على الأطفال..

ثم جاءت خادمتها الوفية (ناتاشا)، ثم قالت لمخدومها:

معذرة يا سيدي.. إن للأطفال أساليب خاصة، اتركني معها وستصبح الأمور على

خير ما يرام،

وهذا وعد.

## الفصل الثاني عشر

منذ وطئت (إيلينا) قدماها قصر النبيل (ليونيد)، حاول الجميع بلا استثناء معها، لجعلها تتكيف مع حياتها الجديدة، بل وحاولت هي كذلك، وقدم لها الجميع كل شيء بلا استثناء، وتوافر هي لها كل شيء بلا استثناء، والمزيد على ذلك، فقد أعطاها النبيل اسمه، فأصبح اسمها (إيلينا ليونيد بيتروفيتش)، ومن ثم فقد كانت ترتع في رغد العيش، وتحيا حياة القصور والنبلاء، وتعيش حياتهم وتأكل طعامهم، وتحضر حفلاتهم، وتتعلم مجاملاتهم وكلامهم، ولكنها وعلى الرغم من ذلك، كانت تشعر بوجود حاجز منيع، فيما بينها وبين هذه الحياة الرغدة الهنيئة، وكانت تتذكر دائماً أسرتها وأشقائها ووالديها، على العكس من شقيقها (يوجي)، الذي انغمس في هذه الحياة الجديدة حتى النخاع، وأصبح يعيش حياته، مثل أي ابن نبيل مميز في هذه الحياة، بل على العكس من ذلك، ففي الوقت الذي كانت فيه (إيلينا)، تعيش حياتها بتواضع وبساطة وانسيابية، كان هو.. الغرور والتسلط والغطرسة، قد أصبحت أهم سماته وصفاته، حتى أن الجميع بلا استثناء، كان يضيق به، ومن أسلوبه ومعاملته، الفجة الفظة الغرورة، أما هي.. فقد كانت مثل الزهرة، كلما رويتها بالماء، اينعت وترعرعت وتجملت، فقد كانت الأيام بالنسبة لها مثل الماء، كلما مرت زاد جمالها وتألّفها وفتنتها، حتى أصبح الشقيقين على النقيض تماماً، كلا منهما من الآخر، من حيث الأسلوب.. والطبائع والخصال، حتى بلغ عمرها

ثمانية عشر عاماً، وشرع الرجال والخُطاب يهرولون، خلف فتنتها الطاغية.. بلا حدود، وساعتها.. واجهت والدها النبيل (ليونيد) وطلبت منه أن يروي لها كل الحقيقة، وبلا كذب.. أو موارد.. أو استثناء، وعلى مضض شرع هو يروي ويروي، وحكى لها بأن والدها قد تخلى عنهما هي وشقيقها، وقام ببيعهما في سوق الرقيق.. بملى إرادته، وتقدم هو لشرائهما.. حرصاً وحفاظاً عليهما، وأن والدها حاول التهجم عليهم عقب ذلك بدون سبب واضح، وضرب أحد رجال الشرطة وقام بفقأ عينه، وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً، وقرر أن ينهي قصته بكذبة بيضاء منمقة، بأن قال لها في حزن مدروس: إن آخر ما وصله من أخبار عن أبيها، أنه قد توفي بالسجن، بعد خمسه أعوام من سجنه، أي منذ حوالي ستة سنوات تقريباً، وأنه رفض إخبارها بهذه الحقيقة المؤلمة، حرصاً منه على مشاعرها الرقيقة، وعدم إدخال الحزن والمرارة عليها، وعندما سمعت هي هذه القصة وموت أبيها، شرعت تبكي وتبكي، فقد كان هناك حاجز شبه قوي، يمنعها من تذكر قصتها كاملة، وعلى الرغم من أنها قد صدقت، جزء من رواية من قام بتربيتها والإحسان إليها، هي وشقيقها.. ولكنها كانت تشعر في أعماق قلبها، بأن هناك كذبة كبيرة في هذه القصة، أو ربما هي خدعة أكبر، ولكنها وعلى الرغم منها، اضطرت إلى التظاهر بالتصديق مؤقتاً، وهي تشعر بأنه سيأتي اليوم الذي تظهر فيه الحقيقة الكاملة. فهذا ما كانت تأمله.. وتمنائه، في الوقت الحالي.. على الأقل، سيما وأن والدها بالتبني، لم يخل عليها يوماً في أي شيء، فقد كان لديها كل ما تشتهي وتطلبه، وكل ما لا تطلبه، أو بمعنى أدق فقد كانت تعيش هي وشقيقها، في نعيم حقيقي تتمتع فيه بلا حساب،

كانت موضع حسد من الجميع.. بلا استثناء، ولكن هذا لم يمنع غصن الحزن  
الممزوج بالمرارة، من أن ينمو في أعماقها.. وينمو.. وينمو..

لنعد قليلاً إلى الوراثة، وبالتحديد حيث حكم على (فلاديمير) بالسجن،  
ودلف إلى هناك، أو بمعنى أدق.. دلف إلى الجحيم، فهناك ومنذ وطئت قدماه أرضي  
السجن، أدرك الفرق الحقيقي ما بين النعيم والجحيم، جحيم السجن.. والمعاملة  
الحيوانية للانسانية، والغير آدمية على الإطلاق، ففي البداية.. وعقب ارتداء  
ملابس السجن، فهناك قسم التعليم.. تعليم المساجين، أو بمعنى أدق قسم حرق  
المساجين، وهو عبارة عن حرق المسجون في جبهته، من الناحية اليمنى بأداة طويلة،  
وتنتهي بحديدة حمراء كاللهب، تشبه رقم الثمانية وكانت هذه الوسيلة تستخدم  
للمساجين، الذين يحصلون على أحكام، بالسجن لعشر سنوات فما فوق ذلك،  
وليس كل المساجين، والغرض منها بأنه إذا هرب المسجون، فإنه لن يستطيع تخيئة  
هذه العلامة مدى الحياة، ومن ثم يكون من السهل عليهم، استرداده ومتابعته،  
والقبض عليه مرة أخرى فيما بعد، وبالطبع بصفته رجلاً يعمل حداداً، وعمل  
معظم عمره وحياته في الحديد والنار، فقد كان أقوى وأشجع الرجال جميعاً بحق،  
وأشدهم وأكثرهم تحملاً على الكي بالنار، بل والوحيد الذي تقدم بلا تردد وبلا  
خوف، بينما سمع من خلفه صرخات وأهات جميع المساجين، الذين تم كهم  
بالنار، وأمر الكي بالنار شيء، أمر قائد السجن، (فيدور لازاروف) هو شيء آخر  
ومختلف تماماً، فهو ليس إنساناً.. وليس بشرياً على الإطلاق، إنه كالحجارة أو أشد  
قسوة، لقد قتل بسبب قسوته عشرات المساجين حتى الآن، خاصة في غرفة

التعذيب، وهي عبارة عن غرفة من الحديد فقط، يظل فيها السجين عارياً تماماً، بلا أي ملابس طوال فترة تواجده فيها، وهي خاضعة لإرادة قائد السجن الرهيب هذا، الذي يخشاه الجميع.. وبلا استثناء، وأن الشيء الجميل الوحيد في هذا السجن اللعين، أو في هذا الجحيم الحقيقي، هو ضابط السجن (إيفان مالييوف)، وبعد أن تم توزيع المساجين الجدد على العنابر، وإعطائهم الملابس الخاصة بهم، شرع أحد العساكر في نفخ بوق السجن، وهو البوق المميز لمرور قائد السجن سالف الذكر، واصطف جميع المساجين في خوف ممزوج بالرعب الشديدين، إلا هو بالطبع...

وحضر القائد (فيدور)، وتوجه لتقاء السجناء الجدد مباشرة، وكأنه يحفظ كل السجناء في هذا السجن اللعين، وعندما وصل إلى (فلاديمير)، وسأله عن اسمه ومهنته، قبل الدلوف إلى السجن، وأخبره هذا الأخير بكل بياناته، وعندما علم القائد بأنه كان يعمل حداداً، نظر إليه القائد في شراسة، ثم قال له بذات لهجته:

سنجعلك تنصهر ههنا..

ثم انصرف القائد في صرامة، دون أن يضيف أي كلمة أخرى، وعندما تم نفخ البوق مرة أخرى للانصراف، وفي طريق عودته إلى حيث زنزانته، كانت في انتظاره مفاجأة جميلة، لقد تقابل مع صديق الوطن (ألبرت) وتعانق الاثنان في حرارة، وشرعا بيكيان.. ويكيان.. من شدة الفرحة.

## الفصل الثالث عشر

انتحيا الاثنان ركنا قصياً، وشرعا يتحدثان ويتذكران، تلك الأيام الجميلة، حيث بلدتهما الأم، وسأله (فلاديمير) عن أحواله، وكيف نجا من هذا الوباء اللعين، وكيف وصل إلى هنا، وما هو سبب دخوله إلى السجن، وما هي الجريمة التي ارتكبتها، للوصول إلى هذا الجحيم، وشرع (ألبرت) يروي قصته قائلاً في شرود:

أنت تذكر بالطبع ما حدث مع هذا المرابي اللعين..

بالطبع اتذكر.. ثم اردف قائلاً:

بالمناسبة ماذا حدث له في هذا الوباء؟

هل نجا أم لا؟

- (ألبرت) :-

لقد أكله الطاعون.. وإن كنت اتمنى أن يحترق في الجحيم..

فضحك (فلاديمير) ضحكة صافية..

واستطرد (ألبرت) كلامه قائلاً:

بالطبع أنت تعلم بعد أن هب هذا الوباء، وجاء إلى بلدتنا الحبيبة، وقضى على كل شيء، وقضى على الأخضر واليابس، وجردنا من كل شيء، ومن كل عزيز لدينا، حتى أن زوجتي وأولادي كلهم، قد ذهبوا جميعاً من جراء هذا الوباء اللعين، وعندما حل هذا الوباء اللعين على بلدتنا، كنت من ضمن الهارين، إلى هذه البلدة اللعينة، التي لا أعرف فيها ثمة أحد، ولا مأوى ولا مسكن، ولا أصدقاء أو أقارب، أو حتى معارف استدين منهم، كما كنت أفعل هناك، وقضيت ليلتين في الشارع، اتصارع واتنازع، مع الكلاب الضالة والقطط الجائعة، من أجل قطعة خبز هنا أو هناك، حتى اتقوت من شدة الجوع، فضلاً عن أنني كنت أصارعهم، من حيث المكان، وهرباً من رجال الشرطة طوال الليل، وذات مرة اشتد بي الجوع، فنزلت إلى السوق، لعلّي أجد ما اتقوت به، وظللت أتسول طوال ساعة كاملة، دون أن يحنو عليّ ثمة أحد، ثم وجدت بائعاً للخبز، وكان الجوع قد بلغ مني مبلغه، وكان رجلاً بديناً لعيناً، مثل ذلك ذلك المرابي اللعين، فابتسم (فلاديمير) لذلك، واستطرد (ألبرت):

وظللت أتسول له لكي يطعمني، بل لقد عرضت نفسي له ليشتريني، وأصبح له عبداً مقابل، فقط إطعمني الخبز.. فقط الخبز، ولكنه أيضاً أبى ورفض، في غرور واستعلاء وغطرسة، وكأنه أحد ملوك الأرض بحق، فلم أجد أمامي سوى سرقة رغيف من الخبز، والجري به بأقصى سرعة، حتى يمكنني أكله، ولأنه كان بديناً جداً، ولأن هذا الرجل كان مكروهاً في السوق بأكمله، فلم يهتم ثمة أحد لأمرني، أو يجري خلفي ثمة أحد، وهو يحاول الجري خلفي، صارخاً لص.. لص، وجلست في مكان بعيد، قابلاً في مكاني استمتع بوجعتي الساخنة الجميلة، حيث

كنت لم أذوق الطعام، طوال ثلاث ليال كاملة، ونظر (فلاديمير) إلى نحافته  
الشديدة. ثم قاطعه قائلاً:

وهنا في السجن.. هل يوجد طعام..

فقال (ألبرت) ساخراً:

هنا.. ثم ربت هذا الأخير على ركبته قائلاً بذات لهجته الساخرة:

هنا ستجد الطعام الفاخر.. طعام الملوك بحق..

ثم استطرد هذا الأخير قائلاً:

وكان لهذا الرجل البدين صاحب الخبر عبداً، ذو خمسة عشر عاماً أو يزيد، ظل  
يتبعني حتى أدرك مكاني، ثم قام بإرشاد رجال الشرطة عني، وهكذا اقتادوني إلى  
قاضي البلدة، الذي حكم عليّ بمنتهى العدالة والنزاهة، بالسجن ثلاث سنوات  
كاملة، ثم اردف قائلاً:

هل تصدق هذا؟

السجن ثلاث سنوات من أجل رغبة من الخبز،

ثم اردف قائلاً:

إنني اتساءل.. ترى لو سرقت هذا الخبر من أحد النبلاء؟

أو من أحد الملوك مثلاً..؟

أكانوا.. أعدموني حرقاً...؟

ثم نظر صوب (فلاديمير) وهو يقول في تساؤل:

وأنت ما هي قصتك؟

ماذا حدث لك؟

أين زوجتك وأولادك؟

هل نجيتم من هذا الوباء اللعين أم لا؟

وما الذي جاء بك إلى هنا؟

وكيف اقتادوك إلى هنا؟

فحان الدور على (فلاديمير) ليرت على ركبته وهو يقول في حزن ممزوج بالمرارة:

لهذا قصة طويلة.. ربما تكون أطول من قصتك..

وهنا نفخ أحد حراس السجن، النفير الخاص بطعام الغداء، وهنا وقف

(ألبرت) على الفور،

وهو يقول في فرحة:

معذرة يا صديقي.. إنه نداء الطعام..

وتوجه الجميع تجاه المكان المخصص لذلك، وأثناء الطعام والذي لم يكن سوى رغيف من الخبز، وطبق من الخضروات، ولكنه كان بالنسبة لـ (ألبرت) أفضل شيء في هذه الدنيا، وجلس الصديقان بجوار بعضهما البعض، وفي أثناء مرور أحد الحراس، استوقفه (فلاديمير) قائلاً:

أيها الحارس.. هل من الممكن أن أكون مع صديقي هذا؟، وأشار إلى صديقه (ألبرت) الذي ضربه في قدمه، ليكف عن الاستطرد والكلام، ولكن (فلاديمير) لم يعره اهتماماً، ومضى في طريقه مكماً:

في زنزانه واحدة.. فنحن أصدقاء منذ زمن، فنظر إليه الحارس العملاق في سخرية، وابتسم ابتسامة كريهة قميئة، كاشفاً عن معظم أسنانه الصفراء اللعينة، ثم قال هذا الأخير في استهزاء:

ماذا تريد من أيها القطعة الصغيرة؟

وهنا ضربه (ألبرت) في قدمه مرة أخرى، ضربة أشد قوة، ثم قال للحارس معتذراً:

معذرة.. أيها الحارس، إن صديقي جديد هنا، ولا يعرف ثمة شيء عن قواعد السجن هنا، ثم اردف قائلاً:

نعتذر لك مرة أخرى أيها الحارس..

فنظر الحارس نظرة شرسة إلى (فلاديمير)، وتحركت يده في تحفز على سوطه، وكأنما لا يعجبه أن ينتهي الأمر على هذا النحو، فقال (ألبرت) مرة أخرى:

لقد اعتذرنا لك أيها الحارس، هيا انصرف ودعنا نستكمل طعامنا، ثم لكزه هذا الأخير بكوعه قائلاً:

أول قاعدة يجب أن تتعلمها هنا يا صديقي، يجب ألا تتحدث مع الحراس، أو تتطلب منهم ثمة شيء أياً كان، الوحيد الذي يجب أن تتحدث معه، أو تطلب منه.. هو الضابط (إيفان ماليبوف)، فهو الملاك الوحيد هنا، في هذا الجحيم اللعين، وفي تلك اللحظة،

ظهر الملاك للمرور بين السجناء.

## الفصل الرابع عشر

تقدم (ألبرت) من الضابط (إيفان)، وعندما أصبح هذا الأخير على مقربة منهم، وبصوت هامس طلب الأول، من الثاني بأن يكون الثالث، وأشار إلى (فلاديمير)، في زنزانة واحدة نظراً لصدافتها القديمة، ووافق الضابط (إيفان) على الفور، وألقى أوامره إلى ذلك الحارس اللعين، والذي سخر منهما، ونظر إليهما ذلك الحارس، بنظرة تفيض بالمقت والشراسة، لأنهما من وجهة نظره استطاعا الانتصار عليه وهزيمته، وتحقيق غرضهما.. وهدفهما، وانتهى الاثنان من طعامهما وانصرفا إلى حيث زنزاتهما، وهناك جلسا متجاورين، وشرع (فلاديمير) يروي قصته، منذ البداية.. وانتهاءً بجنونه، وقيامه ببيع أطفاله إلى النبيل الثري، المعروف (ليونيد بتروفيتش)، ثم ضربه لأحد حراس الشرطة، بلكمة شديدة تسببت في فقأ عينه، الأمر الذي أتى به إلى ساحة القضاء، والحكم عليه بالسجن بخمسة عشر عاماً، وها هو ذا يرزح في نيران جحيم السجن المستعر، وهنا قال (ألبرت) في حزن معلقاً على قصته:

إذن فأنت لست بأفضل مني، فقد قمت ببيع أطفالك أيضاً، فقال (فلاديمير) في لهجة تفيض بالحزن الممزوج بالمرارة:

لكلا منا ظروفه المختلفة يا عزيزي (ألبرت)..

ثم استطرد قائلاً:

والآن.. ماذا يجب علينا أن نفعل؟

فقال (ألبرت) في حزن:

ننتظر أن يمر هذا اليوم..

حتى يأتي إلينا اليوم التالي.. وهكذا..

\* \* \* \* \*

تم توزيع (فلاديمير) على مهنة شق، أشجار الغابات.. ونقلها، بينما تم توزيع (ألبرت) على المطبخ، وهكذا افترق الصديقان، ولم يعد كلا منهما يلتقي بالآخر، إلا في آخر المساء، ومع بداية الليل.. عندها يكون (الأول)، قد انتهى جسده تقريباً من شدة، التعب و الارهاق من شق الأشجار ونقلها، وبعد انتهاء وجبة العشاء، يجلس الصديقان يتسامران حتى يحين موعد النوم، وهكذا كان الأمر يتكرر كل ليلة، وبعد مرور ستة أشهر، على دخول (فلاديمير) للسجن، عاد ذات ليلة ليشهد صديقه، مربوطاً على عامودي التعذيب والجلد، ويقف بجواره الحراس، والضابط (إيفان).. والقائد (فيدور) بشخصه، ولم يخف (فلاديمير) من ثمة أحد منهم، إلا أن الحراس منعه، من مجرد الاقتراب من السجين المعاقب، وظل هذا الأخير يتساءل في خوف ممزوج بالجزع:

ماذا حدث؟

ووجه حديثه إلى (ألبرت) وهو يقول بذات لهجته:

ماذا فعلت؟

وحاول الاقتراب من صديقه المقيد، إلا أن الحراس الكثيرون، والمحيطون به إحاطة السوار بالمعصم، منعه من مجرد الاقتراب منه، وصرخ فيه قائد السجن الرهيب (فيدور):

ابتعد أيها الحقيير..

ونظر (ألبرت) إلى صديقه (فلاديمير) نظرة، وكأنها نظرة الوداع، فسأل أحد السجناء المتواجدين في همس:

ماذا حدث...؟

ماذا فعل؟

فأجابه السجن في همس مماثل:

يقولون بأنه سرق طعام من المطبخ..

ثم استطرد هذا السجن هامساً:

وقد أمر القائد بعقابه بخمسين جلده...

وهنا تقدم (فلاديمير) من القائد الرهيب، (فيدور) في جراه حسده عليها الجميع قائلاً:

اسمح لي أيها القائد أن أتلقى العقاب بدلاً منه، فهو ضعيف البنية كما ترى، ولن يتحمل مثل هذا العقاب الشديد من الجلد، فنظر إليه القائد نظرة انتفض لها جميع المساجين، وطأطأ القائد رأسه أرضاً مفكراً، وعلى حين غره صفع القائد، بطل قصتنا صفقة تكاد تفتت لها الحجارة، ولكن (فلاديمير) كان قوي البنية وتحملها، ثم رفع القائد سوطه وكاد يجلد (فلاديمير)، إلا أن الضابط (إيفان) تدخل في هذه اللحظة، وأمسك يد القائد في قوة قائلاً:

يكفي هذا يا سيادة القائد، إنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه كل هذا، ونظر القائد إلى ضابطه في قوة، نظرة تتجمد لها الدماء في العروق، ولكن الضابط (إيفان) لم يهتز ولم يتحرك، وإن كان القائد قد اعتبر ما حدث هو بداية لتمرد أو عصيان، واسرها القائد في نفسه، ولم يبدها لهم.. وسحب يده في قوة، من يد ضابطه ونظر إلى (فلاديمير)، باعتباره المسئول الأول عما حدث، وقرر في نفسه أن يعاقبه على ذلك، ولكن فيما بعد.. وانزل يده وهو يقول في صرامة:

فليبدأ العقاب..

وبدأ الجلاد في جلد المسكين (ألبرت)، الذي انطلقت آهاته لتملأ المكان بأكمله، وعاد (فلاديمير) إلى مكانه بين السجناء، وأثر الصفعة التي ارتج لها كيانه كله، وأدمت قلبه وكرامته وكبريائه، لم يزل من على وجهه بعد، بل ولن يزل من على

قلبه إلى الممات، وكم تمنى أن يرد للقائد هذه الصفعة، وليكن ما يكون، وليحدث ما يحدث، ولكن ماذا بعد؟

لقد ضرب عسكري من قبل، فحُكِمَ عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، من العذاب والبؤس والشقاء، والحرمان والبعد عن أولاده، فكم سيحكم القاضي عليه، إذا علم أنه قد ضرب قائد السجن، وفي ضعف ممزوج بالاستسلام، وقف بجوار باقي السجناء، وترقق الدمع في عينيه، وهو ينظر إلى (ألبرت) المسكين، وهو يشاهد آثار الجلد على جسده، يكاد يكسر عظامه، سيما وأن هذا الأخير كان نحيلاً جداً، ولا يكاد يوجد بجسده ثمة لحم، لقد كان وكما يقولون جلد على عظم، وكان (فلاديمير) ينظر إلى عينيه، ما بين الحين والآخر، وعند الجلدة الخامسة والعشرون، ذهبت عن عينيه بريقهما، وأيقن (فلاديمير) بأن صديقه (ألبرت) قد فارق الحياة ورحل عنها، وكأن هذا الأخير قد كان يسعى إلى ذلك، وهنا صرخ (فلاديمير) بكل قوة أمراً الجلال:

انتظر..

وذهب في لهفة إلى صديقه يتفحصه جيداً، ومهزه ذات اليمين وذات اليسار، بلا أدنى فائدة، وامتألت عينيه بالدموع وهو يقول للضابط (إيفان) في حزن شديد:

لقد مات.. مات..

واحتضن (فلاديمير) صديقه الراحل في قوة، وشرع يبكي ويبكي ويبكي، وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان، لقد اخرج الضابط (إيفان) سيفه ثم قال في قوة، موجهاً حديثه إلى القائد (فيدور) والشرر يتطاير من عينيه:

لقد قلت لك.. بأنني لن أسمح لك مرة أخرى، بقتل أيّاً من السجناء، والآن ايها اللعين اخرج.. اخرج من هنا، قبل أن اقتلك.

فصرخ فيه القائد قائلاً:

تراجع أيها الضابط وإلا.. فقاطعه (إيفان) بوضع سيفه على رقبة القائد قائلاً:

لقد قلت لك اخرج.. اخرج، وإلا أقسم لك بأنني سأقتلك، ولم يتجرأ ثمة أحد من الحراس أو السجناء على التدخل.. فهذا صراع الكبار، ورويداً.. ورويداً ظل (إيفان) خلفه، حتى اخرجه نهائياً من السجن، واغلق خلفه باب السجن، بينما القائد يصرخ ويتهدد ويتوعد، حتى خرج بالفعل من السجن نهائياً، وسط فرحة جميع السجناء، والقليل من الحراس، وكان السواد الأعظم فرحاً مسروراً، إلا (فلاديمير) الذي كان ما زال يبكي، على صديقه الراحل البائس،

إلى الأبد.

## الفصل الخامس عشر

لم يعد القائد (فيدور) الرهيب، مرة أخرى إلى السجن، وإنما حضر بديلاً عنه القائد (فيتالي ايجوروف)، وكان هذا الأخير معتدلاً متوسطاً، كان يعاقب عندما يستحق الأمر العقاب، وفي الأمور الشديدة، وكان لا يستخدم الجلد كعقاب، إلا في عظام الأمور.

ومرت الأيام بطيئة ثقيلة، وتصادق (فلاديمير) مع أحد السجناء، والذي يدعى (آركادي برماكوف)، وبالصدفة البحتة كان هذا الأخير، قد ضرب شرطياً قد عاكس زوجته، ولكنه لم يكتف بفقاً إحدى عينيه، لقد قطع إحدى يديه بالسيف أيضاً، وحكم عليه القاضي بالسجن، عشرون عاماً.. وساعتها قال له (فلاديمير):

وما الذي استفدته.. من كل ذلك، نعم لقد أخذت حقك، وانتقمت لشرفك وزوجتك، ولكنك تركتها وتركت أطفالك، لشظف العيش.. ولهيب الحياة، ينهشون فيهم نهشاً، وليس لفتره قليله، وإنما لعشرون عاماً كامله، فلن تجد زوجتك وأطفالك، من يذود عنهم ويحميهم، فأجابه صديقه (آركادي)، بلهجة تموج بالحزن الشديد الممزوج بالمرارة:

معك كل حق...، ثم استدرك باسمياً:

ولكن معذرة يا صديقي، فإن كنت أنا قد تركتهم،

ثم أشار إليه قائلاً:

فقد قمت أنت ببيعهم، وطأطأ (فلاديمير) رأسه، وكأنما قد ضربه صديقه بسيف،  
ماض ساخن صارم بتار، وترك عمله.. وجلس أرضاً، وشرع (فلاديمير) يبكي ويبكي،  
وترك صديقه عمله واتجه إليه، واحتضنه وشرع يعتذر له عن مزاحه السخيف  
هذا، وأقسم له بأنه لن يقولها مرة أخرى، وطوال أربعة عشر عام، ثم جلد  
(فلاديمير) حوالي خمس مرات، ولكن ليس بسبب خطأ منه، أو جريمة أخرى  
اقتربها داخل السجن، ولكنه فعلها دفاعاً وزوداً، عن سجناء آخرين، اقتربوا  
أخطاءً.. ولكنهم ضعاف البنية، ولا يقدرّون على تحمل عقوبة الجلد، وخشى لو تم  
تنفيذ العقوبة فيهم، يموتون مثل صديقه الراحل (ألبرت)، وكان هو الوحيد في  
السجن الذي يفعل ذلك، حتى وهو مريض، وحتى عندما كان يقوم بعمله، فقد كان  
يقوم به على أكمل وجه وخير قيام، ودونما أدنى شكوى أو تكاسل، ولكن في العام  
الأخير اشتد عليه المرض، حتى أصابته الكحة الشديدة من شدة البرد، وأصبح  
يبيصق دماً، واحضروا له الطبيب في السجن،

الذي قال له:

أنه لم يشاهد هذا المرض من قبل، ومن ثم فلا يعرف له علاجاً، وأنه يحتاج إلى  
الدفء الشديد، وفي آخر ستة أشهر من عقوبته، انتقل إلى حيث أعمال المطبخ،  
وظل هناك حتى انتهت فترة عقوبته، وخرج وسط حزن شديد من زملائه وأصدقائه،

وبكى عليه صديقه (أركادي) بكاءً مرأً، وبكى عليه زملائه لأنهم شاهدوا فيه، الرجولة والشهامة.. والمروءة وكرم الأخلاق، حتى قائد السجن الضابط (إيفان) فيما مضى، ودعه قائلاً في تأثر:

أتمنى ألا أراك هنا مرة أخرى.. فأجابه (فلاديمير):

شكراً.. شكراً لك أيها القائد على كل شيء..

وخرج.. خرج (فلاديمير) من سجنه، بعد أن قضى خمسة عشر عاماً بالتمام والكمال، خرج إلى هذه الدنيا الواسعة إلى حيث الحرية، خرج وهو لا يدري إلى أين يذهب؟

أين سيسكن؟

أين سيقوم؟

كيف سيأكل؟

وهو لا يمتلك سوى نقوداً قليلة، وشرع يمشي.. ويمشي، حتى تجاوز مشارف البلدة، وأصبح داخلها بالفعل، وشرع يفكر ويفكر مرة أخرى، ماذا يفعل؟

إلى أين يذهب؟



تلك الكلمة السحرية التي اهداها (سيرجي) إليه، منذ ما يزيد على خمسة عشر عاماً، بعد الانتهاء ونجاح قضية صديقه (ألبرت).

والتقت أعينهما في النهاية، وكاد (فلاديمير) يطير من الفرحة، لأنه استطاع أن يجبره على الإلتفات إليه، وتذكر (سيرجي) الكلمة على الفور، ولكنه شرع بحكم السن، يتذكر.. ويتذكر أين قالها؟.. ولمن قالها؟

وما مناسبة قولها؟

حتى انجلت الذاكرة تماماً أمامه، وأصبح كل شيء واضحاً جلياً أمامه، حتى وقف الصديق (سيرجي) أمامه بعربته، وهذا الأخير ينظر إليه،

وهو ينفض غبار الزمن عن وجهه قائلاً:

كيف حالك يا صديقي (فلاديمير)..؟

وسط نظرات من الحسد والحقد والغيرة، من جميع الناس المحيطين بمستر (سيرجي)، وكاد (فلاديمير) يسقط مغشياً عليه من شدة الفرحة، غير مصداقاً بأن صديقه قد تذكره بحق، ومد (سيرجي) يده إلى صديقه ليصعد إلى العربة، وهذا الأخير ما زال غير مصدق، من شدة الفرحة، ولم يستطع (فلاديمير) كبح جماح مشاعره هذه المرة، فقد شرع يبكي.. ويبكي.. ويبكي.

\* \* \* \* \*

وعندما وصل الاثنان إلى حيث بيت (سيرجي).

قال الاول للثاني في فرحة جياشه:

في الحقيقة يا مستر (سيرجي)، لم اعتقد.. ولو للحظة واحدة، بأنك سوف تتذكرني،  
فرد عليه (سيرجي) ضاحكاً:

ألم أقل لك يوماً بأنني لا أنسى، الأسماء والوجوه والأحداث، ما حبيت قط، فقال  
(فلاديمير) في جدية:

والآن أخبرني ما قصتك يا مستر (سيرجي)..

وما الذي حدث معك؟

وكيف جئت إلى هنا؟

وكيف نجوت من هذا الوباء اللعين؟

وكيف وصلت الي كل هذا؟

فقال (سيرجي) في ثقة:

كلا.. بل أنت الذي سوف تخبرني كل شيء، منذ تركتك.. في بلدتنا الحبيبة، وحتى  
التقينا هنا اليوم، وطأطأ (فلاديمير) رأسه أرضاً، ثم شرد قليلاً.. ثم شرع يروي  
حكايته، وشرع يروي..

ويروي..

و (سيرجي) يستمع اليه بكل انصات.

## الفصل السادس عشر

انتهى (فلاديمير) من رواية قصته، ثم سأل صديقه (سيرجي) عن قصته، حيث أجابه هذا الأخير قائلاً:

قصتي لا تختلف كثيراً عن قصتك، فقد هربت مثل باقي أهالي البلدة معهم، وعندما وصلت إلى هنا، فوجئت بأن كثيراً من الناس يعرفونني، وأحسنوا ضيافتي – وأكرموا وفادتي، حتى سمع أحد النبلاء بوصولي إلى هنا، فأصر على أن يكرمني، وأن أألمه في قصره، ولم يمنعني هذا من الدفاع، عن الفقراء كما وعدت زوجتي، وهكذا وبمرور الزمن أصبحت، صديقاً للجميع.. الأثرياء والنبلاء والفقراء معاً، وهنا سأله (الأول)، السؤال الذي يكاد ينفجر على شفتيه:

هل تعرف النبيل (ليونيد بيتروفيتشي)؟

فطأطأ (سيرجي) رأسه أرضاً، ثم رفع رأسه وسأل الأول في جدية:

هل تعتقد أن ظهورك الآن في حياة أولادك سيكون مجدياً؟

ثم استطرده كلامه قائلاً:

أعني إنهما الآن يعيشون حياتهما، بمنتهى الحرية.. بالطول والعرض، ويعيشون حياة الترف والقصور، ويتعاملون كأبناء النبلاء، ثم أردف قولاً معذراً:

معذرة يا عزيزي (فلاديمير)، وليس كأبناء أحد السجناء، فضلاً عن أنك لن تستطيع مهما فعلت، أن توفر لهما الحياة الكريمة، التي يرتعان هما فيها الآن، فسأله (فلاديمير) مرة أخرى:

إنك لم تجب سؤالي بعد...!

هل تعرف النبيل (ليونيد بيتروفيتشي)؟

فأجابه (سيرجي) على الفور:

نعم أعرفه.. أنه من أعز اصدقائي، والآن ماذا تريد؟

فأجابه (فلاديمير) بسرعة:

إن لدي فكرة صغيرة، حول هذا الأمر أتمنى أن تسمعها، وتعجب بها.. وتنفذها لي، وشرح (فلاديمير) فكرته..

وأنهم (سيرجي) بها..

إلى أقصى حد ممكن..

\* \* \* \* \*

بعد الانتهاء من شرح فكرته، قال (سيرجي) في سعادة:

رائع.. إن السجن لم يؤثر على حسن تفكيرك، وتديريك للأمور، ثم أردف قوله قائلاً:

والآن يجب أن نزل إلى السوق، لنشتري لك ملابس جديدة، ثم استدرك قائلاً:  
ولكن يجب أن تعدني بأن تحفظ السر، فأجابه (فلاديمير) في ثقة:

أعدك.. وبعد شراء الملابس الجديدة، انطلقا الاثنان إلى حيث قصر (ليونيد) وبعد الدلوف إليه، والجلوس في القاعة الكبيرة، والمعدة خصيصاً لاستقبال كبار الزوار، لم يطل انتظارهم حيث حضر، النبيل (ليونيد) بمجرد معرفة اسم ضيفه، على جناح من السرعة، وكانت فكرة (فلاديمير) تعتمد، على الدلوف إلى القصر كأحد الطباقين مثلاً، فقط ليكون بالقرب من أولاده، ويموت وهو بجوارهم، وكم تمنى أن يراهما هما في البداية، فإن حوائط السجن، تمتلأ برسوماتهم، منذ تركهم وحتى اعتقاده بعمرهم الآن، وهكذا مرت الأيام وترك الرسوم، ليقابل الأصل.. وقطع حبل تفكيره وشروده، صوت النبيل (ليونيد)، وعبارات الترحاب والمجاملة التي لا تنقطع، حتى جلس الجميع، وقام (سيرجي) بتعريف الجميع على بعضهم البعض، ولكن (فلاديمير) انتحل اسماً آخر وهو (بوريس سيدروف)، وشرع (ليونيد) ينظر إلى (فلاديمير) بتمعن وهو يسأله:

ألم نلتقي من قبل يا مستر (بوريس)؟

فأجابه هذا الأخير على الفور:

بالطبع لا..

وهنا تدخل (سيرجي) في الأمر قائلاً مغبراً دفة الحديث:

وهنا يأتي دوري ودورك في الأمر يا سيدي اللورد، فقال (ليونيد) في ثقة ممزوجة بالصدق:

أنت تعلم أنك على الرحب والسعة، دوماً يا عزيزي (سيرجي)، وهنا أخذه (سيرجي) بعيداً في أحد الجوانب وشرح له الأمر قائلاً:

إن هذا الشخص هو من أعز أصدقائي، ولقد دخل السجن ظلماً، لأنه كان يدافع عن شرف زوجته، وهو الآن رجل كبير كما ترى، ونريد أن نوفر له حياة كريمة قبل أن يموت، ثم أردف كلامه قائلاً:

ولقد وعدتني بأن لي خدمة كبيرة لديك، وطلب لا يرد،

وها هو ذا طلبي.. فهل ستردني؟

فأجابه (ليونيد) على الفور:

كلا بالطبع.. ثم استدرك قائلاً:

معذرة يا عزيزي (سيرجي)، إنه ليس مريضاً أليس كذلك؟

فأجابه (سيرجي) على الفور:

بالطبع لا.. إنه صحيح معافي، مثل الحصان كما ترى بنفسك الآن، على الرغم من أن (سيرجي) كان يعلم بمرض (فلاديمير)، وهنا قال (سيرجي) لصديقه (ليونيد):

والآن يا عزيزي.. قم بالنداء على الفاتنة (إيلينا)، حتى يزداد الصباح إشراقاً، وهنا اتجه (ليونيد) نحو باب القاعة، ونادى على خادمه الخاص (ديمتري)، والذي على الرغم من أنه قد تجاوز السبعين من عمره، إلا أنه قد انطلق كالصاروخ، لتنفيذ أوامر سيده ومخدومه، وقبل أن تمر الدقائق العشر، وصلت الفاتنة (إيلينا)، وأشرقت الشمس من جديد في القاعة، وكانت صورة مصغرة، من جمال وفتنة أمها (ميرا)، واندفع (سيرجي) يستقبلها بالأحضان والقبلات، فهو في مقام عمها، وإنهار قلب الأب.. وتحجرت قدماه، وحاول كبح جماح دموعه، وحاول.. إلا أنه لم يستطع، فقد هزمته هذه الدموع اللعينة في النهاية، وكم تمنى أن يكون مكان (سيرجي)، فهو الذي يجب أن يستقبل ابنته بالأحضان والقبلات، كما كان يتمنى أن يركع تحت قدمها، طالباً منها العفو والسماح والصفح، عما اقترفته يدها في حقها، وانهمرت دموعه على وجهه، وهو يحاول مسحها بشتى الطرق، ولكن بلا أدنى فائدة، وفي حنان قال (سيرجي) لها:

تعالى كي أعرفك بأعز أصدقائي في هذا الوجود، الطباخ الجديد لكم مستر (بوريس سيدروف)، وتقدمت ابنته منه، وهي لا تعرفه ولا تتذكره بالطبع، وسلمت عليه.. ويبدو منتفضة.. مرتعشة، قام هذا الأخير بالسلام عليها، وتلامست الأيدي، وسرى

تيار كهربى عنيف فى جسده وقلبه، ولم يتحمل هذا المسكين هذا الأمر، فسقط هذا المسكين مغشياً عليه على الفور، وفقد الوعي بدون مقدمات، واندفع الجميع بلا استثناء لمحاولة إسعافه وإنقاذه، وصب عليه صديقه (سيرجى) كوباً من الماء لإفاقته، واستفاق هذا المسكين من غيبوبته، و(سيرجى) ينظر إليه نظرة عتاب نارية، فقال (سيرجى) محاولاً تلطيف الموقف:

معذرة يا أصدقائى، يبدو أن صديقى يشعر بالجوع، فهو لا يتحمل الجوع نهائياً، وغمره (ليونيد) بنظرات من الشك وعدم التصديق، وشعرت (إيلينا) بأنها قد رأت هذا الرجل من قبل، بينما كان (فلاديمير) يسبح فى عالم آخر، عالم من النشوة.. والسعادة..

بلا حدود..

## الفصل السابع عشر

انصرف (سيرجي) من القصر على مضض، فلم يعجبه تصرف (فلاديمير)، إلا أنه قال في النهاية في نفسه، بأن الرجل كان محروم من ابنته لمدة خمسة عشر عاماً، فضلاً عن ندمه الشديد على بيعها هي وشقيقها، شقيقها.. عندما يراه، فلن يندم على بيعه أبداً.. أبداً، أما (ليونيد) فقد عرّب الشك في نفسه وصدّره، وتساءل للمرة المليون.. لماذا؟..

لماذا فقد هذا الرجل وعيه بمجرد رؤيته لهذه الفتاة الصغيرة؟

لماذا يشعر بأنه قد رآه من قبل؟

لماذا كان سعيداً هكذا بعد استفاقته؟

لماذا دلف هذا الرجل إلى السجن؟

هل القصة التي أخبره بها (سيرجي) حقيقية؟

إنه محامي.. والكذب لعبته، أيكون قد ضحك عليه وأوهمه بهذه القصة؟

هل من الممكن أن تكون هذه الفتاة ابنته؟

وأن يكون هو أياًها، الرجل الذي باعها له منذ خمسة عشر عام، وعند وصوله لهذه النقطة، شرع يعتصر عقله.. ويعتصر، وساعتها تجلت له الحقيقة. وساعتها طار على جناح من السرعة، إلى حيث المطبخ حيث كان (فلاديمير) هناك، ونادى عليه بقوة:

(بوريس).. أريدك للحظات..

وبدون تبادل لأي كلمة، ذهباً سوياً إلى حيث قاعة الزوار، وهنا أغلق (ليونيد) الباب جيداً، وأمر خادمه الخاص (ديميتري)، بعدم السماح لأي أحد، مهما كان بالدخول عليهما مهما حدث، فقال (ليونيد) لـ(فلاديمير) أمراً بعد أن جلس هو:

اجلس..

وتردد (فلاديمير) في ذلك، وهو يشعر بالحرج، إلا أن (ليونيد) أعادها مرة أخرى في صرامة:

قلت لك:

اجلس...

ثم قال هذا الأخير:

بصراحة وبدون لف ودوران وفي جدية تامة..

لقد اكتشفت الحقيقة.. ثم اتكى بظهره..

ما هو اسمك الحقيقي؟

فقال (فلاديمير) متظاهراً بالغباء:

اسمي (يوريس سيدروف)..

فقال (ليونيد) بسرعة في صرامة:

أنت كاذب.. أنت والد (إيلينا) الحقيقي، الذي بعثها لي منذ خمسة عشر عاماً، عندما  
قمت بفقأ عين حارس الشرطة، وحكم عليك بالسجن طوال هذه المدة.. أليس  
كذلك!..

كان (ليونيد) يتكلم بصوت عال، فقال له (فلاديمير) في ضراعة:

أرجوك يا سيدي.. اخفض صوتك..

فقال (ليونيد) في غضب شديد..

إذن فالأمر حقيقة بالفعل، كنت تريد أن تخدعني أنت وصديقك (سيرجي)، ثم  
أردف قائلاً:

بالمناسبة.. كيف تكونت صداقتكما؟ قبل السجن بالطبع..

وطأطأ (فلاديمير) رأسه في حزن، بعد أن اكتشف (ليونيد) الحقيقة، وهنا قال  
(ليونيد) في غضب:

والآن ماذا تريد؟

فقال (فلاديمير) في ضراعة وقد ترقق الدمع في عينيه:

أقسم لك يا سيدي أنني لا أريد شيئاً، في هذه الدنيا سوى الاستمتاع برؤيتهما في  
أواخر أيامي، واقسم لك يا سيدي بأن كلاً منهما لن يعلم.. حقيقة أمري، ثم انحنى  
على قدميه يكاد يقبلهما قائلاً باكياً:

اقسم لك.. يا سيدي..

فقال (ليونيد) في غضب:

وماذا لو اكتشفوا أمرك..

فأجاب (فلاديمير) على الفور:

اطردني يا سيدي.. اطردني على الفور..

فنظر إليه (ليونيد) قائلاً في شك:

أطردك..

فقال (فلاديمير) وهو ما زال جاثياً على الأرض:

على الفور يا سيدي..

فقال (ليونيد) وقد أمسك بيده ليساعده على القيام:

قم يا.. بالمناسبة ما هو أسمك الحقيقي؟

فقال له بصوت منخفض:

أسي هو (فلاديمير مالينوف)..

فقال (ليونيد) باسمًا:

إذن لا بأس.. يا عزيزي (بوريس)، واستدرك قائلاً:

ولكن تذكر جيداً.. بأنك أقسمت.. ووعدت..

وهنا قال (فلاديمير) في صدق:

لا تقلق يا سيدي. لقد أقسمت ووعدت..

فقال (ليونيد) في تهديد:

وإن حدث وحنثت بقسمك ووعدت..

فأجابه (فلاديمير) بذات لهجته الصادقة:

حق لك.. أن تطردني من بيتك إلى الأبد يا سيدي..

واستدار (ليونيد) وهمَّ بالانصراف، فاستوقفه (فلاديمير) قائلاً:

معذرة يا سيدي.. أريد أن أرى ابني..

فنظر إليه (ليونيد) بنظرة احتجاج ، فقال (فلاديمير):

أسف يا سيدي..

فقال (ليونيد):

ابحث عنه في الحقول.. ستجده هناك.. ثم استطرد قائلاً:

وبالمناسبة.. لم يتغير اسمه، ما زال اسمه (يوجي) كما هو، وانطلق (فلاديمير) في حيوية ونشاط، يبحث عن نجله بكل قوة، ولم يستغرق الأمر منه كثيراً ليجد ابنه، وعندما أبصره هناك، تمنى من أعمق أعماق قلبه أنه لم يره، بل لقد تمنى من أعمق أعماق قلبه، بأنه لم ينجبه، فقد كان نجله هناك فتى شاباً قوياً طويلاً.. متين البنيان، ذو الثمانية عشر عاماً، يجلد أحد العبيد، وعندما سأل العبيد المحيطين بالموقف، أجابه أحد العبيد في رعب شديد:

بأن هذا العبد قد سقط منه أحد الأجولة على الأرض، وتبعثرت محتوياته على مساحة واسعة، فسأله مرة أخرى:

وهل حكم عليه بالجلد لعدد معين من الجلادات؟

فأجابه العبد بذات لهجته السابقة:

كلا.. ثم استطرد قائلاً:

إنه يظل يضربه.. حتى يتعب هو.. وليس العبد..

وهنا انطلق صوت (يوجي) هادراً وهو يسأل:

من الذي يتحدث هنا؟

فأجابه الأب في حزن:

أنا.. يا ولدي..

وكانت المواجهة.

## الفصل الثامن عشر

اتجه (يوجي) بكل عنفوانه وقوته، نحو (والده) الحقيقي، والأول لا يدري بالطبع ولا يعرف بأنه والده، ثم سأل الابن والده في صفاقه:

ومن أنت أيها الحقير؟

ولم يدر الأب ماذا يقول، وقد تباينت مشاعره تماماً، أيفرح من أجل مشاهدة نجله، أم يحزن لأن هذا الحيوان هو نجله، أم يحزن لصفاقة نجله، وانتزعه من مشاعره المتباينة هذه، صرخه نجله فيه مرة أخرى، وضرب السوط بجواره، لإحداث الصوت والرعب المطلوبين، الذي ينشدهما الابن في سطوه وغرور وهو يقول:

قلت: من أنت أيها الحقير؟

فأجابه الأب في حزن شديد:

أنا الطباخ الجديد...

فصرخ فيه الابن مهدداً:

أقسم لك أنك لولا أنك جديد هنا، لأقتلعت لسانك اللعين هذا بيدي، وهنا قال الأب في حنان:

هل تسمح لي بالكلام يا ولدي؟

وهنا اتجه الابن نحو والده، الذي لا يعرفه في عدوانيه شديده قائلاً:

إياك ان تقول لي يا ولدي مره أخرى..

هل تفهم أيها الأحمق؟

فأجابه الأب في إنكسار ممزوج بالحزن الشديد:

أمرك يا ول.. اقصد يا سيدي..

ووجدها الأبين فرصة لالتقاط أنفاسه..

ثم قال في غرور:

والآن ماذا تريد؟

فقال الأب وهو يعتقد أنه يتحدث، مع إنسان به شيء من الرحمة:

ألا يكفي ما لاقاه هذا المسكين من جلد وتعذيب..

وهنا هجم عليه الابن في شراسة، وأمسك والده من تلايبيه قائلاً:

اسمعي جيداً أيها العبد اللعين.. ثم استطرد قائلاً:

هنا الكل عبيد.. هنا الكل ملكي، والكل يخضع لي، وإن حاولت التدخل في هذا الأمر مرة أخرى، أقسم لك بأنني سأجلدك حتى الموت، هل تسمعني جيداً؟.. حتى الموت.

ثم دفع والده بكل قوة، والذي تعثر في أحد الأحجار، فسقط الأب بكل قوة على ظهره، وانطلق الأب يضحك بكل قوة في شماته، ونظر إليه جميع العبيد في شفقة، وخاف الجميع من أن يساعده ثمة أحد على النهوض، فيكون مصيره التعذيب والجلد، مثل ذلك العبد المسكين المقيد، في الشمس منذ أكثر من ساعة، وقام الأب.. وقد أصابه الانهيار الكامل، وانصرف الأب في حسرة شديدة، وعلى الرغم من أنه كان يمشي في اتجاه الشمس، وكانت الشمس تضرب عينيه، إلا أن سحب دموعه قد غطت هذه الشمس القوية، فلم يعد يشعر بضئها أو ألمها، ومضى الأب في طريقه حزيناً شريداً، هل هذا هو ابنه الذي قاتل لاستعادته؟

هل هذا هو ابنه؟

الذي من أجله ومن أجل شقيقته، قام بدون قصد منه، بفقاً عين حارس الشرطة، ثم دخل إلى السجن بسبب ذلك، خمسة عشر عاماً، من العذاب والحرمان والشقاء،

هل هذا هو ابنه؟

الذي ظل يرسمه على حوائط السجن، لآخر يوم قبل خروجه، هل هذا هو ابنه الذي لم يتمن شيئاً في هذه الدنيا، سوى رؤيته.. رؤيته فقط، وتحت ظل شجرة

كبيرة بجوار القصر، جلس الأب هناك وشرع يبكي ويبكي ويبكي، ولم يفق سوى على يد حانية، تربت على كتفه قائلة في حنان عذب أجمل من كل ألحان الموسيقى:

ماذا بك يا عماه؟

فرفع رأسه في حزن، فأبصر ابنته الفاتنة (إيلينا) فسألته بذات لهجتها الحانية:

لماذا تبكي هكذا؟

هل أساء إليك شقيقي (يوجي)؟

ونسى الدنيا كلها عندما رآها، وكم تمنى أن يرتعي في أحضانها، ويصرخ.. ويصرخ أنا والدك، أنا والدك الحقيقي، ولكنه تذكر قسمه ووعدده، فأمسك عليه لسانه، وحاول التهوض.. فأمسكت يده مرة أخرى، لتساعده على التهوض، وانتفض جسده وقلبه مرة أخرى، عندما تلامست يده مع يدها الحانية.

وقال لها في حنان دافق:

شكراً لك يا.. ثم سألها في تردد:

هل تسمحين لي بأن أخاطبك بابنتي؟

فقالت له (إيلينا) باسمه في بساطة:

نعم أسمع لك..

وأبصر الأب وردة حمراء، فقطفها وقدمها كهدية إلى ابنته قائلاً:

هل تقبلين مني هذه يا.. وقاطعته ضربة سوط قوية على ظهره، فانتفض لها من  
شدة الألم، واتضح أنها من (يوجي) الذي قال في شراسة:

لو مددت يدك مرة أخرى على.. فقاطعته (إيلينا) هذه المرة في غضب:

إياك أن تفعل هذا مرة أخرى، فقال (يوجي) في تبجح:

إنهم عبيدي.. ممتلكاتي أفعل بها ما أشاء..

فقالت (إيلينا) بذات لهجتها الغاضبة:

هكذا.. فأجابها شقيقها (يوجي) في تحدي:

نعم.. هكذا..

فقالت (إيلينا) في تحدي مماثل:

إذن فإن هذا العبد.. عبيدي، ومنذ الآن ليس لك أي شأن به، ثم صرخت فيه قائلة:

هل سمعت...؟ ثم اردفت كلامها صارخة فيه:

هيا اذهب.. انصرف.

فقال (يوجي) لوالده في تحدي:

سأقطع يدك لو لمست شيئاً آخر، هل فهمت أيها الوغد، وتساءل الأب في شدة، إنهما شقيقان.. من نفس الأب، ونفس الأم.. من ذات البطن، رضعا من ذات اللبن،

فما سر هذا التناقض الشديد فيما بينهما إذن؟

حقيقة إنه لا يدري لذلك ثمة سبب معين، ومضى عليه شهراً كاملاً في هذا القصر، وهو يتحاشى مجرد النظر إلى وجه ابنه، وإن كان في أعماقه كان يتمني الإعتراف له، والارتواء من احضانه، والعمل علي إصلاحه و تقويمه، ولكن ما باليد حيلة، وركز كل حديثه وسهراته مع ابنته الحبيبة الفاتنة (إيلينا)، حتى إنها في ذات مرة قد قالت له:

لماذا أشعر يا (بوريس)؟، - وقد طلب منها بأن تناديه باسمه مجرداً - ، في كل مرة أراك فيها، بأنني قد رأيتك سابقاً، وأن وجهك مألوفاً لي، فقال لها وهو يستدير بوجهه خشية أن تتذكر:

صدقيني يا بنيتي، إننا لم نلتق من قبل، فلقد كنت في السجن، طوال خمسة عشر عاماً، ففوجئ بها تسأله:

وأين كنت قبل الخمسة عشر عاماً؟

فارتج عليه القول ولكنه أجاب:

لقد كنت أعمل أجيراً في الحقول، وشرعت هي تعتصر عقلها وذاكرتها، ولكن بلا أدنى فائدة، وهنا تهرب منها قائلاً:

أعتقد أن سيدي (ليونيد) يناديني, وعندما دلف إلى القصر، أبصر الخادم الخاص (ديمتري) وهو يحمل صينية من أطباق الطعام، ويتجه بها إلى المائدة، إلى حيث يجلس سيديه (ليونيد) و(يوجي)، إلا أن الخادم سالف الذكر، قد تعثر في السجادة الأرضية، فسقط هو والأطباق على الأرض، وجاء بعضها على ملابس (يوجي)، فاندفع هذا الأخير بكل قوته، وبدلاً من أن يساعد الخادم العجوز، على الوقوف والنهوض من سقطته، صفعه على وجهه بكل قوة.

وكانت صدمة قوية جداً جداً علي كلا الاثنين, (فلاديمير) و (ديمتري).. ولكن ماذا بيد كلا منهما أن يفعل؟..

لا شيء.

## الفصل التاسع عشر

و هنا صرخ (يوجي) بكل قوة قائلاً:

ماذا فعلت أيها الحقير؟، فقال الأب (ليونيد):

إنه لم يقصد يا ولدي...، ثم أردف معتذراً قائلاً:

معذرة يا عزيزي (ديمتري).. إنه لا.. فقطاعه (يوجي) صارخاً:

ماذا ستفعل يا أبي؟

هل ستعتذر لهذا الحقير..؟

وهنا مد (فلاديمير) يده، ليساعد الخادم على النهوض، ثم شرع يلملم في الأطباق

معه، وفي المطبخ قال (فلاديمير) للخادم العجوز:

ماذا فعلت أيها التعس؟

لماذا لم ترد هذه الصفعة إليه؟

ففتح الخادم المسكين عينيه، في دھول ممزوج بالرعب، وهو يقول في استنكار:

ماذا تقول يا عزيزي (بوريس)؟

أتريدني أن أضرب سيدي (يوجي)..!

ثم أردف قوله بذات لهجته:

لقد جننت بالتأكيد...

إنه سيدي.. وابن سيدي، وأنا معهم منذ سيدي الأكبر والد سيدي (ليونيد)، فضلاً عن أننا نرتع من خيراتهم، ونأكل من طعامهم ونشرب من شرابهم، ونلبس من فضلهم، ونعيش في مملكتهم، فأني خير تريد بعد هذا، بل إن حياتنا مرهونة بهم، فهم يملكون بيعنا وحياتنا، ونحن نرتع في هذا الخير الكثير، فهم يملكون القدرة علي بيعي في سوق العبيد، فقد يبيعونني لمن لا يقدر قيمتي، يكفي أنهم قد أكرموني بعدم عملي في الحقل، أحمل الأثقال.. والأعباء وأعمل في الشمس الحارقة، ثم تقول لي بأن أرد الصفعة، ثم أردف قائلاً:

إن سيدي (يوجي) لو أخرج سيفه، وقام بتمزيقي إرباً، فسيكون ذلك من دواعي سروري، إذهب.. إذهب يا ولدي، إن رصيدك في هذه الحياة ما زال قليلاً، فقال له (فلاديمير): والكرامة...

فقال له (ديمتري):

ليس هناك كرامة فيما بين السادة والعبيد، ثم انصرف هذا الخادم البائس المسكين، و(فلاديمير) ينظر إليه نظرة عطف وشفقة، وهذا الأخير يقول في حزن:

بل إذهب أنت أمها البائس المسكين، وفي الفاترة التي قضاها (فلاديمير) في قصر (ليونيد) أشدت عليه المرض بصورة مريرة عسيرة، وكان يزيد عليه المرض في كوخه ليلاً، وكان ينزف الدماء بشدة من فمه، ولكنه كتم أخبار مرضه، وتحمل آلامه في صلابه، ولم يخبر ثمة أحد، وساعده على ذلك أنه يعيش في كوخ بمفرده، وفي اليوم التالي سافر (ليونيد) لعقد أحد صفقاته التجارية، وقضى هو يوماً من أجمل أيام عمره، مع ابنته الغالية الفاتنة (إيلينا)، وفي الليل تناهى إلى سمعه صوت صراخ ممزوج بالألم الشديد، فذهب لاستطلاع الأمر، وعندما سأل عما حدث، أخبره أحد العبيد بأن سيده (يوجي)، قد تحرش بالفتاة (ناتاشا)، ابنة العبد (رودلف)، وعندما اعترض هذا الأخير على ذلك، قام (يوجي) بتقييده وجلده كالعادة، وهنا قرر (فلاديمير) التدخل، فقد امتلأ القدرح به.. وفاض، واستأذن من ابنته الحبيبة التي حاولت منعه وإثناؤه بشتى الطرق، ولكن بلا أدنى فائدة، واتجه الأب إلى ابنه، وهو عاقد العزم على منعه، من الإكمال بشتى الطرق.. وبأي وسيلة، وعندما وصل الأب إلى هناك، وأبصر نجله.. تمزق قلبه، وتباينت مشاعره.. ما بين الشوق الي نجله الحبيب، والإرتماء في احضانه، وما بين مقاومة هذه الرغبة الشديدة بشدة، وما بين مشاهدة الأب لما يبغضه من نجله، وعلى يد من.. على يد أغلى وأعز الناس لديه، نجله الوحيد.. ولكنه في النهاية، قاوم نفسه ومشاعره، وحسم أمره.. واتخذ قراره، في قوة وإرادة وصلابة يحسد عليها، هذا البائس المسكين، وأخيراً وليس آخراً، إتجه إلى

نجله بكل قوة وصلابة، وقد عزم على ما عقد عليه، وأمسك السوط بكل قوة، ونزعه بكل صلابة من يد نجله، قائلاً في صرامة:

ماذا تفعل أيها اللعين؟

وحاول الابن جذب السوط من يد والده، واستعادته بكل عنف منه، ولكن والده كان أقوى منه بكثير، من أن يهزمه إبنه في هذه اللحظة، فهو الذي نجح في جذبته من يده، فما زال والده يحتفظ، بالكثير من قوته وعنقوانه، رغم كبر سنه، ومرضه، وهنا صرح الابن في قوة:

هكذا.. أيتحدى العبد سيده بهذه الصفاقة..

فقال الأب في صرامة وقد فاض به الكيل:

بل أنت الصفيق.. ولم يربك والدك.. أبداً..

وغلت الدماء في عروق الابن، وجن جنونه..

كيف يحدث له هذا؟

كيف تتم إهانته على هذا النحو؟ أمام هذا الحشد من العبيد.. كيف؟

وصرخ الابن في جنون في عبيده، وذلك بعد أن أخرج سيفه، أمسكوه.. قيدوه...، ثم

قال الابن في جنون:

اقسم لك... لأجلدتك حتى الموت.

واتجه العبيد إليه خشية من بطش (يوجي)،

ولكن الأب صرخ فيهم:

اتركوني سأذهب بمفردي...

ثم ذهب بكل شموخ، وفك قيود العبد (رودلف)، والذي نظر إليه نظرة إمتنان، ثم وضع يديه هو على العامودين، وفي قوة ممزوجة بالانتقام، شرع (يوجي) في تقييد والده بكل قوة، وحضرت (إيلينا) في هذه اللحظة، وذلك بعد أن انتهى شقيقها من تقييد والده، وصرخت هي فيه، بكل ما يعتمل في نفسها من قوة وحب، لكي يتعد عنه، وحاولت إثناء شقيقها عما يفعل، ولكن الابن كان قد جن جنونه، وفقد عقله بحق، فدفع شقيقته بكل قوته، فسقطت هي على الأرض باكية، وجن جنون الأب.. وهو يصرخ:

(إيلينا)... (إيلينا)... ولكن الابن كان قد أحكم قيوده، وانهار قلب الأب المسكين عندما شاهد ابنته، تلملم نفسها.. وتقوم مكسورة الكرامة من على الأرض، وشق الابن ملابس ظهر والده، وعلى ضوء المشاعل، شاهد آثار السياط على ظهر والده، فقال الابن في سخرية:

إذن فأنت معتاد على ذلك...

وأمسك الابن السوط في يده، وشرع في جلد والده،

وفي تلك الأثناء تحركت السماء لهذه الجريمة الأرضية، ابن يجلد والده... بمنتهى القسوة، وأعلنت السماء غضبها، لما يحدث، فهزم الرعد.. وظهر البرق في السماء، وتحركت الغيوم في كثافة ممزوجة بالغضب، ولأن (فلاديمير) كان قد زرع المحبة والسلام، في خلال الشهر المنصرم، فقد شرع الجميع بلا استثناء يبكون في حزن ممزوج بالألم، وشرعت (إيلينا) تصرخ.. وتصرخ، وهي تطالب شقيقها بالتوقف، ولكن بدون أي فائدة، وأعلنت السماء مشاركتها لمشاعر هؤلاء العبيد البؤساء.. فهطلت الأمطار في غزارة، وكأنها تبكي معهم، وتعالى صوت بكاء العبيد، لينافس صوت هطول الأمطار، وبدأ الأب ينزف من ظهره، ولكن هذا لم يكن يؤلمه، ففي تلك الأثناء هاجمه المرض اللعين، وتحركت الآلام عليه في جانبه الأيسر، وشرع الأب ينزف من فمه، مع الجلادات الأولى، وكم تمنى الأب أن يصرخ ويصرخ معلناً لولده المتوحش هذا، بأنه والده.. الحقيقي، لا ليستدر عطفه وشفقته ورحمته، ولكن ليعلنه رغبته الشديدة في احتضانه، ربما.. فربما يكون في لحظاته الأخيرة الآن، فرغم كل ما يفعله نجله به، فهو لم يكرهه.. ولم يغضب عليه أو منه، واشتد عليه العذاب.. والآلام، في تلك اللحظة، آلام السياط التي تنهمر على جسده من أغلي وأعز الناس، لديه في هذا الوجود كله، نجله الحبيب.. الذي مهما فعل به، أو مزقه إربا إربا، فلن يغضب منه أو يبغضه، وآلام مرضه اللعين، الذي إشتد عليه في هذه اللحظة أيضاً، والدماء التي تنزف من فمه، وما بين عذاب قلبه، الذي شعر بدنو أجله، فشرع قلبه يصرخ و يصرخ في صمت، ليعلن لنجليه أنه والدهما، ويحظى

بدفء أعضائهما، في لحظاته الأخيرة، إلا أن لسانه أبي، ورفض ذلك بكل شدة وصرامة، فقد تذكر قسمه وعهده للنبي (ليونيد)، فتحامل علي نفسه بكل كرامة و كبرياء، حتى لا يحدث بعهد و قسمه للنبي سالف الذكر، وعلى ضوء البرق.. وعلى ضوء ما حدث، شرعت ذاكرة (إيليا) تنجلي رويداً.. رويداً، فتوقفت عن البكاء، وشرعت تنظر ملياً إلى هذا الرجل، وارتدت بذاكرتها منذ خمسة عشر عاماً مضت، وشاهدت الرجل الذي كان يضرب الحرس، وادركت فارق الشبه فيما بينهما، الآن تذكرت لماذا فقد هذا الرجل وعيه؟ عندما لمسها لأول مرة، تذكرت لمساته.. الرقيقة معها.. وحنانه الدافق الذي لم تعهده في والدها ذاته، ومن بين دموع آلامه، ومن بين شفتيه.. وقد بدأ يشعر بدنو أجله، شرع يهمس ويتمتم لابنته:

احبك.. احبك يا بني، وصرخت هي بكل ما تملك من قوة، بعد أن استبان لها الحقيقة:

أبي.. واشترك صوت البرق معها.. وكأنه يؤيدها..

ثم أمسكت بحفنة كبيره من التراب، ثم القتها في وجه أخيها حتى يبتعد عن أبيها، وأمسك الابن عينيه في قوه، وقد ترك السوط من يده، وهو يصرخ بكلمات دنيئة، وصرخت هي في العبيد، كي يساعدها على فك قيود أبيها، وكأنما كان العبيد لا ينتظرون سوى أمرها، فقد انطلقوا جميعاً على الفور لتحريره، وما أن نزل الأب على الأرض، بمساعدة باقي العبيد حتى انهالت على وجهه بالقبلات، وهي تصرخ معتذرة متوسلة:

أبي.. أبي.. وشرعت تبكي.. وتبكي.. ومن بين دموعها قالت:

أرجوك سامحني يا أبي..، فلم أدرك الحقيقة إلا الآن..

ثم دفنت نفسها في صدر أبيها، وشرعا يبكيان ويبكيان، وعندما استدار الابن، لإكمال ما بدأه، صرخت فيه (شقيقته) بكل قوه، إنه أبينا.. أبينا الحقيقي يا (يوجي).. أقسم لك.. أقسم لك،

فقال الأب لنجمله في حنان:

اقترب يا ولدي.. أعلم أنك لم تكن تعلم، ولكن يجب أن تتغير، فهؤلاء البؤساء هم أيضاً بشر، فقال الابن غير مصدق:

إذن فأنت أبي.. أنت أبي، وأنا جلدت وقتلت أبي..

يا إلهي.. يا إلهي.. يا لعذابي، فقال الأب في حنان دافق:

اقترب يا ولدي.. ولأول مرة احتضن الأب نجلاه، وتحقق للأب ما كان يتمناه في لحظاته الأخيرة،

ثم قال بصعوبة باكياً:

لقد سامحتك يا ولدي...، إنني اصفح عنك، ويكفي أنني قد نلت ما أبتغي وأشتهي في هذه الدنيا، واحتضنت نجلاي قبل موتي، ثم ارتخى جسده...، وفاضت روحه إلى بارئها، وصرخت هي بكل قوتها:

أبي..

ثم شرعت تضرب شقيقها صارخة لقد قتلت أبي...، لقد قتلت أبي، ثم انهارت مرة أخرى على صدر أبيها، ثم شرع الجميع بلا استثناء... يبكون.. ويبكون.. ويبكون..

( تمت بحمد الله وتوفيقه )

يوم 29 /7/ 2016 الساعة السابعة وخمسة وثلاثون دقيقة صباح يوم الجمعة.